ليوناردو دافنشي

تأليف: إملي هان

ترجمة: د. محمد سيد محمد



الطبعة الثانية

دار الثقافة العربية

٣ شارع الشر...

ت / ...٤٢٧٠٦

ليوناردو دافنشي

تأليف : إملي هان
ترجمة : د. محمد سيد محمد

الطبعة الثانية
١٩٨٩م

دار الثقافة العربية
٣ شارع المبتديان - السيدة زينب
ت / ٣٥٤٢٧٠٦ القاهرة



صبی فینشی

عندما تذهب الى فلورنسا " بايطاليا " وتقلب البصر بين المدينة والأرض الصخرية المحاطة بالتلال •• قد يطوف بخاطرك أن كل ما حولك لم يتغير الا قليلا منذ شيدت القصور الشاهقة والكبارى الضخمة • وسوف تكون على حق ، فتلال « توسكانيا » المتوشحة بأشجار الزيتون أو العارية من الوشاح ، والوديان الطويلة الخاوية بين سلاسل الجبال كما هى لم تتغير، وهذه القلاع والحوائط وأبراج الأجراس المترائية من بعيد لم يطرأ عليها الكثير من التغيير عما كانت عليه فى أعين الايطاليين الذين أطلوا عليها منذ خمسة قرون •

ولو رأى « ليوناردو دافينشى » اليوم المدينة التى عاش فيها منذ أمد طويل لما بدت غريبة عليه ، سيلحظ ــ بالطبع ــ أن الحوائط القديمة قد تقوضت وأن عددا من المنازل قد أقيم وراءها الا أنه سوف يتعرف على قصر « البتى » ومقبرة « آل مديتشى » وحوانيت الجواهرجية ، كما سيذكر الكبارى وبريق أحجارها الذهبى • هذه الأحجار التى بنيت بها الكثرة الغالبة من المنازل التى تبدو كأنها نقعت عدة قرون فى هجير الصيف الساخن الحار الذى تعرفه فلورنسا •

ولد « ليوناردو » فى عام ١٤٥٢ قرب قرية « فينشى » التى لا تبعد كثيرا عن فلورنسا ، ويقترب سنه من سن « كريستوف كولمبس » حتى انك اذا فكرت فى كليهما معا على أنهما متشابهان فما كنت على خطأ فكلاهما ينتمى الى العصر نفسه ، كما اقتسم كلاهما مع صاحبه الشعور

بروح ذلك العصر ، روح الاكتشاف وحب الاستطلاع والرغبة فى الوصول الى الحقيقة .

ولقد يتساءل غريب عن حضارتنا لماذا نعلى من قدر « دافينشى » الى هذا الحد .. ؟ وماذا فعل الرجل حتى نتحدث عنه بمثل هذا الاعجاب ؟.. ولقد يقول : « اننى أستطيع تفسير اجلالكم « لكولمبس » ذلك أنه اكتشف الدنيا الجديدة ، ويمكننى أن أدرك لماذا تثيرون ضجة حول «ميكل انجلو» Mickelangelos فتماثيله وصوره تقوم دليلا على عبقريته . كذلك عبقرية «بوتيشللى» Botticelli أو أى فنان آخر من فنانى العصر ، ويمكننى أن أفهم لماذا تذكرون «لوثر» الذى لم يلبث أن أشعل شرارة الثورة فى ألمانيا ضد الكنيسة العظمى ، ويمكننى أن أرى لماذا قد تتذكرون أوغادا مثل « آل بورجيا » فكل هؤلاء من أبناء القرن الخامس عشر قد أتوا بأشياء أو تركوا أشياء أقاموا بها الدليل على ما كان لهم من أثر فى العالم.

ولكن ماذا ترك « ليوناردو دافينشى » وراءه مما يفسر كل هذا الاهتمام به وهذه الضجة حول اسمه ؟ . لقد ترك ـ فيما أعلم ـ قليلا ذا قيمة .. رسوما معدودة وبعض قطع رسوم أدخلها على تصميم أناس غيره ، وقطعا متواضعة العدد من النحت ، كما ترك دليلا على تخطيط تمثال ضخم الا أنه لم يتمه ، وترك كراسات فيها ملاحظات بعضها كتابة وبعضها رسوم .. هذا كل ما ترك .. فكيف كان اذن تكريمك اسم « ليوناردو دافينشى » كل هذا التكريم ؟

انك اذا نظرت الى الأمر على هذا النحو فان الاجابة على سؤال الغريب تكون من الصعوبة بمكان . ولكن الواقع المحقق هو أننا نذكر ليوناردو دافينشى ، وأننا نكرمه فى شخصه كما كان ، ونفكر فيه باعتباره رجلا أعظم حتى من « بوتيشللى » . لقد عرفه العالم رجلا عظيما حتى قبل أن تجمع مذكراته وتوضع موضع الدراسة .. لقد بدأت شهرته وهو

على قيد الحياة ولم يخمل قط ذكره على الأيام وان يكن قد عرف الزيادة والنقصان ..

ان أهم ما فى أمر « ليوناردو » أنه كان يهتم بكل شيء .. وأنه عرف الكثير عن موضوعات عدة قبل أن يبدأ غيره الحدس والتخمين فيها بقرون ، والى جانب هذا كان رساما عظيما الا أنه لم يخلف فى الرسم الكثير للذين يطلبون الكم الى جانب الكيف مقياسا للمقارنة .

كان رجلا بَهِيَّ الطلعة ، حتى غالى الذين عرفوه بقولهم : « انه أجمل رجل عاش على الأرض » .. ولكن لم تكن له مغامرات عاطفية مشهورة كما أنه لم يتزوج ولم تكن له أسرة .. وعلى عكس الأبطال الذين تحب أن تقرأ عنهم لا تتمثل فى حياته قصة كفاح وسط العقبات والصعاب ، انه لم يحظ فى حياته بما هو أهل له من التكريم ..

كلا ان تلك الأقاصيص « الرومانتيكية » المألوفة لا شأن لها « بليوناردو دافينشى » فقد كان « ليوناردو » عظيما لا لشيء الا لعقله العظيم .. ان عقله هو الذى صنع مغامرة حياته .. ولا تزال المغامرة مثيرة الى يومنا هذا وقد مضى عليها خمسة قرون ..

كان والده « بيرودافينشى » نسبة الى بلدته « فينشى » محاميا شابا وحفيد سلالة عريقة من المحامين .

نشأ « ليوناردو » وتعلم على نحو ما يفعل كل صبى فى القرية ، وبالرغم من أن فينشى كانت قريبة من « فلورنسا » وأن الحماس الجديد للعلم كان قد انتشر فانه من المحتمل أن المدرسة المحلية كانت على درجة متوسطة . ولم يكن « ليوناردو » بالتلميذ الهادىء المنتظم فى الدراسة فلقد أهمل اللاتينية والرياضة والأدب . ويبدو أنه فضل أن يصل الى معرفة الأشياء على طريقته وبمعدل سرعته ، وكثيرا ما كان ينسل ليتسلق التلال الصخرية التى تحيط بمنزله حيث يجمع السمك والحيوانات الصغيرة ويراقب مسارب الجداول .

وذات يوم ـ على نحو ما كان يتذكر فيما بعد ـ وقف يحدق طويلا في طبقة صخرية اجتاز بها في كهف على مرتفع من التلال التي تكتسحها الرياح ، كانت هناك قواقع مستقرة ميتة في بطن الصخر ، عرفها على أنها لبعض المخلوقات البحرية وكذلك عظام سمكة كبيرة .. وقف يحدق في هذه القواقع والعظام التي تحولت الى حجر ، أو حفريات كما تسميها الآن .. وأخذ يسائل نفسه : كيف اتخذت طريقها الى هذا المكان على بعد أميال من البحر وفوق سطحه بمئات الأقدام .. ؟ انها جزء من الصخر استقرت في بطنه ، وهو لا يعلم أحدا يمكن أن يكون قد حملها من البحر طوال هذه المسافة الى هذا المكان في التلال ثم تركها لتحير الآخرين بلغزها ..

ونحن اليوم نعرف حل ذلك اللغز ، لا لأننا أكثر ذكاء ممن عاشوا زمن « ليوناردو » بل لأن العلماء توافرت لهم خمسمائة سنة من المراقبة والتجربة ، ولم يكن في مقدور أحد أن يشرح أو يفسر ل «ليوناردو» ظاهرة القواقع البحرية في بطن الجبل لأنه لم يكن هناك من يعرف التفسير ، بل اننا نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان أولئك الذين كانوا يتعجبون مثله لوجود العظام البحرية في كهف صخرية كانوا قلة نادرة.

أما «ليوناردو» فكانت غريزة حب الاستطلاع التي لا يشفي لها غليل تدفعه دفعا الى ملاحظة الأشياء ، ثم العمل بما توفر له من عقل سريع التفكير الى بلوغ الجواب . لقد كان له عقل عصري وهذا سر نبوغه . ولعلها كانت فلتة من فلتات المصادفة تلك التي جعلت خروجه الى الوجود في عام ١٤٥٢ . ولعلك سمعت حديث ما يسمونه اليوم بالنهضة، ومعناها الميلاد الجديد أو حركة البعث ، باعتبارها فترة هامة في التاريخ الأوربي وأنه من الصعب أن نذكر تاريخا معينا لهذه النهضة لأنها قامت في أقطار مختلفة ، في أوقات متفاوتة بعض التفاوت وأخذت تنتشر في أرجاء القارة الأوروبية ، الا أننا ندرك أن « ليوناردو » قد ولد في

غضون النهضة الايطالية فى منتصفها تقريبا • و « ليوناردو » جزء من هذه النهضة حتى أنه من الصعب أن تقرر اذا ما كانت عبقريته قد ترعرعت نتيجة لأثر العصر أو أنه دفع بالنهضة خطوة على الطريق ، بل لعل كلا الغرضين حقيقة واقعة •

وما نعلمه على وجه التأكيد أن عددا من الأمور غير العادية قد وقع فى زمن «ليوناردو» ، فقد اخترعت الطباعة الآلية بعد مولده بعامين ، ثم اخترع الورق أو على الأصح اكتشف ثانية فى ذلك الوقت ، ولك أن تتصور ما يمكن أن يفعله الورق والطباعة لحضارة كانت تعتمد على الجلود والكتابة الخطية فى كتبها •• وفجأة أصبحت الكتب رخيصة موفورة ، وأصبح الذين قادوا الطليعة فى الفكر الجديد يمكنهم أن يسجلوا أفكارهم ليقرأها مئات الآخرين ، وعن طريق الكتب المطبوعة أمكن انتشار هذه الأفكار الجديدة •

كان « ليوناردو » فى صباه عندما ولد « كوبرنيكوس » الذى عكف على دراسة نظريات القدماء ، ثم أعلن ما انتهى اليه من أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس • ونحن نعرف أن « كولومبس » كان يعتقد فى كروية الأرض وفى واقع الأمر ان كثرة من المتعلمين كانوا يومئذ يؤمنون بكرويتها • وكانت هناك نظريات وأبحاث أخرى لا حصر لها قد خرجت الى حيز الوجود ، وكان مثالا لها اهتمام «ليوناردو» بالحفريات التى ما كان جده ليحفل بشىء منها برغم وجودها الى جانبه ، بل ان تفكير «ليوناردو» فى كيفية وصولها الى حيث هى لم يكن يثير اهتمام الكثيرين وقت ذاك ، الا أن دنيا «ليوناردو» الخاصة كانت مختلفة •• فحتى الهواء كان بالنسبة اليه مثيرا للاهتمام • لقد خلق «ليوناردو» فى الناس الرغبة فى التفكير ، كما أدخل العلم فى حوزته ••

ومن الأشياء التى بدأ طبيعيا أن يأتيها « ليوناردو » فن الرسم • وانه ليشق علينا اليوم أن نحقق مدى الأهمية التى كان يعلقها رجال

القرن الخامس عشر ونساؤه على فنون الرسم والنحت ، ذلك أن الرسوم بالقلم أو الزيت والنحت ، لم تكن توفر المتعة للناس فقط بل كانت ضرورية حيث لا عدسات تصوير ولا صور فوتوغرافية .. وكان السبيل الوحيد لتسجيل وجوه المشاهير من الناس أو الهام من الأحداث هو أن يرسم الوجه أو يرسم الحادث في أية صورة .

كان «ليوناردو» يقوم بجهد شاق في رسمه ، فهو يرسم « الاسكتشات » ويدون الملاحظات عن الزهور والطيور والصخور التى تجتذب أنظاره وكان ينغمس بكل مشاعره في الرسم بالألوان ، لا لمجرد أن يسجل منظرا على اللوحة فحسب ، بل ليكتشف طريقة أفضل لمزج الألوان ، فقد كان الفنان «الفلورنسى» الأصيل في زمن «ليوناردو» يعتبر مسئولا عن صناعة أدواته التى يستخدمها في فنه .

ومن بين الاكتشافات المثيرة في زمن النهضة ، اكتشاف في مجال الفن ، حيث بدأ الرسامون في ذلك الوقت يتعلمون قواعد علم رسم المنظور ، فحتى ذلك الحين كانت الصور ترسم على نحو ما يرسمها الطفل اذ كان الفنانون يجهلون ـ الحقيقة الظاهرة لنا الآن ـ أن الأشياء المنظورة من بعد تبدو صغيرة في حين تكون القريبة أكبر ، وهكذا في اطراد نسبى . وكان الفنانون يرسمون دون أدنى تردد صور الملائكة معلقين في السحب كالعمالقة .

بنفس الحجم الذى يبدو به القديسون الواقفون على الأرض برغم قربهم لنظر الرسام وبعد الملائكة عن عينيه بعدا كبيرا .

وفى ثنايا النهضة بدأ الفنانون يتحققون من أن الخطين المتوازيين الممتدين على مدى البصر يبدوان كأنهما يلتقيان بعد حين . وأخذوا يلعبون بالنزعة الجديدة مبينين في ابتهاج أنه عن طريق التطبيق الدقيق لقواعد رسم المنظور يمكن الاتيان بعدد غير قليل من الخدع .. وأنهم ..

بذلك يجعلون صورهم أقرب الى الواقع ، كما تلقفوا خـــدعة استعمال الضوء والظل حتى يلمع القماش فى الصورة كما يلمع فى اليد • وتعلم الفنانون أيضا رسم أطراف الشكل ووجهه بطريقة تبدو كأنها تبرز فعلا على اللوحة • كان علم رسم المنظور لعبة جديدة عجيبة مدهشة ، وكان محور الحديث بين الفنانين وتلاميذهم فى استديوهات فلورنسا الكبيرة ، وفى منزل بقرية فينشى كان «ليوناردو» الصغير يمارس ويجرب رســم المنظور الجديد •• كان صبيا طويل القامة جميل الخلقة يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما عندما دفعته مهارته ليحاول شيئا أصعب ، فقد أتى فلاح من جيران عائلة « دافينشى » يحمل قطعة خشب مستديرة طويلة اقتطعها من شجرة تين سقطت فوق أرضه قائلا لوالد « ليوناردو » :

ـ أعتقد أنه يمكن أن تكون « قطعة الخشب » درعا لطيفا يا سيد « بيرو » لأنه خشب طيب •

وكان الفلاح يشير بذلك الى رسوم الزينة أو الرسوم الزخرفيـة الملونة على الخشب التى كان الناس يحبون تعليقها خارج دورهم أو على جدرانهم فى شكل لباس الحرب •• وسأل الفلاح والد «ليوناردو» :

ـ هل تعرف رساما فى « فلورنسا » يصنعه لى على نحو معقـول ؟ انك معروف فى المدينة •

كانت اجابة «بيرو» بأنه سيدبر الأمر فى هذا الشأن ، ثم نسى كلية ما كان من أمر قطعة الخشب التى استقرت عنده فى المنزل ، حتى لاحظ «ليوناردو» أنها بدأت تتلون فتناولها وفردها ثم دهنها بالزيت وتأكد أنها قد سويت تماما ، لم يكن «ليوناردو» مهتما بها على وجه خاص ولكنه كان صبيا يحب أن يعمل بيديه على نحو ما يعمل بعقله • ورمقه سير « بيرو » وهو يعالجها فقال له انك دائم الرسم فلماذا لا تحاول أن تصنع شـيئا مفيدا • انظر اذا كان يمكنك أن تزين هذا الدرع بصورة مناسبة • كان

هذا تحديا فلم يكن الاب والابن على وئام فى هذه الفترة وهو أمر يحدث أحيانا عندما يشق الصبى طريقه نحو الشباب ، وما كان من امرأة أبيه أن تقف فى صفه وما كان منه أن يتوقع ذلك . أخذ الصبى قطعة الخشب الى حجرته ثم عكف على وضع تصميم للرسم وكان يجمع كل مخلوق صغير غريب يقع عليه بصره فى الغابة أو الجداول ، الضفادع والثعابين والخفافيش وما اليها ، وسرعان ما أخذ العفن يصيب أجسام الحيوانات الميتة ، ولكنه كان منهمكا فى رسمه الى حد أنه لم يلق بالا الى الرائحة الكريهة .. كان يستخدم ملامح مختلفة فى رسم الحيوان الوحشى المخيف الذى كان يرسم على الدرع فينقل عينا قبيحة من حيوان ، وفكين كريهين من آخر ، وأذنا مرعبة من ثالث ، ومنها كلها خرج برسم شيطان يتنفس النار . أتم الرسم ثم أنزل الستار على نافذة حجرته فلم يعد ينفذ منها غير شعاع ضئيل يقع على الرسم ونادى أباه ليرى .. وهكذا استغفل «بيرو» تماما .. وكان قد تعود على الرسوم العادية للفنانين الذين لم يدركوا قواعد رسم المنظور وظن أن الوحش الشيطانى حقيقة حية وأنه فى طريقه اليه .. بل انه استدار وأخذ يعدو بعيدا . كان هذا انتصارا «لليوناردو» وما عاد «بيرو» يحط من شأنه بعد ذلك ، وقد اشترى الوالد درعا رخيصا من فلورنسا للفلاح ، وباع الدرع الذى رسمه «ليوناردو» بمبلغ كبير ..

أقنع هذا الحادث المحامى ، أن مستقبل ابنه انما يكمن فى أحد استوديوهات فلورنسا ليعمل تحت توجيه أحد الرسامين المعروفين هناك ، وبدأ سلسلة من الاستعلامات حول هذا الصدد وفى أنحاء المدينة ، وكانت للرجل مشروعات جديدة بالنسبة له نفسه ، فصمم على أن ينتقل بعائلته الى فلورنسا ، وفى عام ١٤٦٨ وقد بلغ ليوناردو السادسة عشرة من عمره غادرت العائلة « فنشى » وبدأت حياتها فى المدينة الكبيرة .



فتى من فلورنسا

لم يكن أهل ايطاليا الذين عاشوا فى القرن الخامس عشر يفكرون فى أنفسهم على أنهم ايطاليون ، لأن ايطاليا لم تكن دولة واحدة • وما نعرفه اليوم على أنه بلد واحد كان اذ ذاك مقسما الى عدد كبير من الولايات الصغيرة • وغالبا ما كانت الولاية عبارة عن مدينة كبيرة تلحق بها بعض المزارع والقلاع •• وكان الناس يعرفون أنهم «فينيسيون» أو « رومانيون » أو « ميلانيون » أو « توسكانيون » نسبة الى « فينيسيا » أو « روما » أو « ميلان » أو « توسكانيا » •

ولم تربط ايطاليا بعضها ببعض حكومة واحدة ، وانما كان كل ما بين ولاياتها من رباط يرجع الى مركزها الجغرافى من حيث أنها شبه جزيرة تبرز كفردة حذاء فى مياه البحر الأبيض المتوسط • وكان هم كل ملك أو « دوق » فى كل ولاية أن يضم اليه الولاية المجاورة ، فاذا سولت لأحدهم نفسه فكرة الزعامة غدت حملاته مصدر فزع ورعب كبير للولايات الأخرى ورؤسائها الذين هم أقل شأنا ••

كانت « فلورنسا » تعتبر جمهورية ، وكانت تحكمها فى الماضى هيئة يمثل أعضاؤها الشعب وارادته ، ولكن عندما وطئت أقدام أسرة « دافينشى » شوارع فلورنسا كانت تحت امرة عائلة «مديتشى» وان لم يكن أفراد آل «مديتشى» يتخذون ألقاب الأشراف أو «اللوردات» لأسمائهم الا أن عائلتهم فى واقع الأمر كانت الحاكم الحقيقى القوى فى «فلورنسا»•

كان آل «مديتشى» من أرباب البنوك الذين كونوا لأنفسهم ثروات طائلة ، وقد وصلوا الى سيطرتهم على الحكم عن طريق المبالغ الضخمة

التى أقرضوها لأشخاص ذوى حيثية فى المدينة وخارجها .. ملوك وأشراف وبابوات ، وكانت بعض العائلات الفلورنسية القومية تقوم بين الحين والحين ـ بطبيعة الحال ـ بمحاولات لاقصائهم عن كراسى الحكم ، الا أن عائلة « مديتشى » استطاعت أن تمكن لسلطانها سنوات وسنوات ، بل وأن توطد موقفها وتزيد من رسوخه ..

بعد عام من نزوح أسرة «دافينشى» ؟ الى المدينة ، نجح «لورنزو» من آل «مديتشى» فى بلوغ العرش ، وبرغم أنه كان فى الحادية والعشرين من عمره لكنه بدا قادرا على أن يستمر فى الاحتفاظ بالسلطان الذى ورثه ، كان «لورنزو» كرجل دولة ثاقب النظرات ، لم يكن مثل آبائه وأجداده كفاية ، الا أنه كان رجلا ذا ذكاء وذوق .

كانت فلورنسا بلدة غنية ، متخصصة فى صناعة الأقمشة وتصديرها كانت هناك الأقمشة الصوفية الزاهية الألوان والحرير والقطيفة اللامعة الموشاة بالذهب والفضة . ويلى ذلك فى الأهمية الجواهر التى اشتهر بها الصياغ فى « فلورنسا » الذين كانوا أحذق صياغ ايطاليا على الاطلاق . وكانوا يصنعون المجوهرات وما اليها للأشراف الأغنياء فى كل مكان . وحتى الآن يعتبر الصياغ « الفلورنسيون » أحذق الصياغ فى أوربا بأسرها ، وفى عصر « ليوناردو » لم يكن عملهم مقصورا على الأساور والقلائد بل كان بعضهم يشتغل بالنحت . وعندما يكون أحدهم نحاتا فانه يحاول أن يعمل فى رسم « الأفرسك » .. ومن ثم يخطو خطوة طبيعية الى الرسم بالألوان بصفة عامة .

ونحن ننظر اليوم الى رسامينا ونحاتينا ومهندسينا على أنهم أهل تخصص ، ونحن نسبغ عليهم الاحترام ، وكثير من الناس يرهبون جانبهم الا أنه فى القرن الخامس عشر كان الأمر مختلفا بعض الشىء ، كانت النظرة اليهم على أنهم صناع أو عمال أكثر من كونهم فنانين مثقفين مثل الشعراء الذين كان يغص بهم بلاط كل أمير أو « دوق » .

كان للفنـان أهميته فى الحيـاة الايطالية وقت ذاك ، وعنـدما فكر « بيرو » فى ارسال « ليوناردو » الى أحد الرسامين ليدربه ويعلمه • انما فعل ذلك على أساس أن يتلقن الفتى مهارة خاصة ، فقد كان الفن عمـلا مثل غيره من الحرف يمكن « ليوناردو » ـ على نحو ما كان يأمل والده ـ أن يعتمد على نفسه فى كسب قوته •

ويجب ألا ننظر الى أمر التحاق « ليوناردو » بأحد الاستديوهات النظرة التى ننظر بها الى نفس العمل اليوم • فنحن نعتبر من له موهبة معينة فى الموسيقى أو الرسم شخصا موهوبا •• شخصا خاصا • واذا كان « ليوناردو » يتمتع بهذه المواهب أيضا الا أن ذلك لم يجعله شخصا خاصا فى نظر أبيه •• وكان جل اهتمامه أن يعلم ابنه مهنة لا تكلفه كثيرا ••

كانت فلورنسا تتخذ طريقها لتصبح احدى المدن الجميلة فى القارة الأوروبية بأسرها تحت رعاية وتشـجيع « لورنزو » • كان النجـارون والبناءون والنحاتون فى عمل مستمر فى الضياع الكبيرة والمبانى العامة ، فقد أنفق السراة من أهل المدينـة أموالهم فى شراء أجمل ما يروق فى أعينهم • وكان « لورنزو » على غرار أبيه يحاول أن يرفع من شأن الفن والأدب فى كل جانب •

سقطت « القسطنطينية » فى عام ١٤٥٣ فى يد الغزو التركى فهرب منها كثير من العلماء الاغريق • ولجأ الكثيرون منهم الى ايطاليا حيث أحسن استقبالهم •• ومن ثم صار من جديد الاهتمام الكثير بالثقافة الاغريقية • وقد كان « كوزيمو دى مديتشى » جد « لورنزو » هو الذى كلف أحد الدارسين الفلورنسيين بترجمة أعمال أفلاطون الى اللاتينية ، وقد قام هذا الفلورنسى بالترجمة على نحو حسن الى درجة أنها لا تزال الى يومنا هذا الترجمة الممتازة •

استمر « لورنزو دى مديتشى » يبذل قصارى جهده ـ حاملا بذلك

رسالة عائلته وتقاليدها ـ ليجعل من فلورنسا مركزا ممتازا فى الفن والأدب والثقافة ، وكان «لورنزو» شاعرا مجيدا وناظما للأغانى • ويمكنك أن تتخيل « فلورنسا » تموج بالحديث عن الأفكار الجديدة في العلم والفن والموسيقى والعمارة • وكان ذلك أمرا مثيرا يحرك وجدان فتى حط رحاله على التو قادما من ريف « توسكانيا » الهادىء •

يبحث « بيرو » عن الأستاذ الحق الذى يضع فى عنقه أمانة ابنه • ثم يقع اختياره على « أندرياديل فيرتشيو » ، فقد كان هذا الفنان من خيرة الأساتذة فى كل فرع من الفنون ، كما كان موضع التقدير التام • كان « فورتشيو » جواهرجيا ونحاتا ورساما • وكان قد تلقى تدريبه كالكثيرين من زملائهعلى يد صائغ حمل اسمه على نحو ما كانت العادة فى ذلك الزمن •

وعندما عرض « بيرو » بعض « اسكتشات » ولده على « فيرتشيو » تبين الأستاذ الفنان من فوره أن هذه اللوحات من عمل شخص موهوب موهبة فذة قبل أن يرى « ليوناردو » وقبل أن يتتلمذ عليه ، ولم يعد على « بيرو » بالطبع ـ الا أن يدفع المصروفات فقد كانت تلك هى الوسيلة التى درجت عليها طريقة التدريب على يد الآخرين وانتقل الشاب الذى بلغ من العمر ستة عشر عاما الى منزل أستاذه وسرعان ما بدأ العمل •

وجد « ليوناردو » نفسه بين زملاء يملأ العمل وقتهم • فقد كان « فيرتشيو » رجلا مجدا ، وكان تلاميذه يقلدونه ، كانت بداية عملهم أكثر من وضع «اسكتشات» كما نفعل اليوم فى مدارس الفنون الجميلة ثم رسم بعض نماذج الطبيعة الصادقة الصامتة ، بل كان على تلاميذ « فيرتشيو » أن يدرسوا أكثر من مجرد تلوين اللوحة أو صب الطينة على هيكل التمثال، كان عليهم أن يجيدوا صناعة اللون ذاته ، كما يجيدون صب التماثيل •

كانت ألوان الرسم والى زمن « ليوناردو » ألوانا مائية تدعى

« تمبرا » تتلاشى بسرعة ، وكان الفنانون في ذلك الوقت يحاولون خلط ألوانهم بأنواع مختلفة من الزيت ، فقد وجدوا أن الزيت يحفظ للون رونقه وجدته • كما كانت أمام الفنانين مئات من المسائل والمشاكل تنتظر الحل أثارها جميعا الاكتشاف الجديد « رسم المنظور » •

كان « فيرتشيو » فوق مشاغل « الاستديو » جميعها يهتم اهتماما بالغا بدراسة الرياضيات الجديدة شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء « فلورنسا » • وقد كانت الرياضيات بالنسبة للفنان ذات أهمية خاصة باعتبارها امتدادا طبيعيا للمحاولات الجديدة في الرسم ، محاولات الرسم الواقعي •• لم يكن « فيرتشيو » على دراية واسعة بالهندسة مثلا ولكنه كان مصرا على أن يتعلم • وما أن رأى « ليوناردو » الرجل العجوز يعالج كتبه ، حتى عقد العزم على اقتفاء أثر أستاذه • وكأنما أصر على تعويض ما أهمل تعلمه في المدرسة ، ومن ثم فقد بدأ الآن وفي وقت متأخر من النهار يجد في تحصيل الرياضيات •

كان « ليوناردو » يدرس كل ما يقع في طريقه تبعا لاهتمامات « فيرتشيو » المتعددة • فكان يقرأ في الطب والفلك وعن الآلات ، وحتى في الجيولوجيا • وعندما قرأ عن الصخور والحفريات تذكر ما كان من أمر القواقع البحرية وعظام السمكة التي رآها في بطن الصخر •• وأخيرا بدأ يفهم لماذا استقرت هناك ، وبينما هو يقرأ ويدرس كان يدون في ملاحظاته ، فنراه يكتب :

« كم من الملوك وكم من الناس وكم من التغييرات في الدول ، وكم من الأحداث قد خلت منذ بلغ هذا الشكل العجيب للسمكة نهايته في جوف هذا الكهف المظلم » •

ان هذه الملاحظات المكتوبة هي أهم سجل منظم نملكه عن عبقرية « ليوناردو » وبرغم مئات السنين التي تفصل بيننا وبينه فاننا نرى فيها الى

أى حد كانت لهفته على المعرفة ، وكم من الجوانب كان لشخصيته ، كان يدون كل شىء فور تمثله لذهنه من أشعار قرأها وأحبها ، وأشعار نظمها بنفسه واجابات رجل هنا أو رجل هناك سأله أن يعلمه شيئا ، الى أن أخذ نفسه باللوم أحيانا غير قليلة •

وتستطيع أن تلمس فى بعض ما دون « ليوناردو » ملامح شخصية والده المحامى فنراه وكأنما تقمصته روح رجل أعمال ،فهو يكتب كم يكلف هذا الأمر أو ذاك من المال ، والمناسبة التى أنفق فيها هذا المال ، وهو يكتب قائمة بالألوان فى منظر رآه ثم رسمه بريشته ،ثم هو يسجل فى مذكراته أيضا الرسوم التخطيطية للآلات التى كانت تستحوذ اهتمامه ويكتب على كل جزء منها اسمه ووصفه •

ومن أطرف ما يذكر فى شأن هذه المذكرات أن « ليوناردو » كان يدونها بطريقة الكتابة المقلوبة ، وهو ما يسميه البعض طريقة كتابة المرآة •• لأنك لا تستطيع قراءتها الا اذا وضعتها أمام مرآة • عندئذ ترى الكتابة المقلوبة معتدلة • واذا تساءلنا لماذا فعل « ليوناردو » هذا •• ؟ فذلك ما تصعب الاجابة عليه •• ونحن نعرف أنه كان يستخدم كلتا يديه اليمنى واليسرى على نحو من الدقة والاجادة • مما لا يتيسر لغير صاحب الواحدة دون الأخرى • وربما كان استخدامه لطريقة تدوين المرآة هو رغبته فى أن يحفظ كتابته سرا عن كل عين عابرة • ويبدو أن « ليوناردو » كان يؤدى هذا العمل بسرعة عادية للغاية •

كانت الحياة فى بيت « فيرتشيو » أشبه بالحياة فى المدرسة الداخلية اليوم ، وعندما كان يكلف عمل تمثال أو رسم فقد كان المفهوم أن يعاونه تلاميذه •• هؤلاء الشبان الذين جمعت الصداقة قلوبهم برباط المزاح والعمل فى آن واحد •

بدا « ليوناردو » متمتعا بحياته فى هذا البيت ، ليس فقط لأنه يجب

أن يعمل ويدرس الأشياء ، بل لأنه أيضا وجد نفسه لأول مرة بين زملاء في مثل سنه • وقد كان تأثيره عليهم بالغا ، فكثيرا ما نرى شذرات عن « ليوناردو » في كتابة فنان أو آخر من مشاهير فناني العصر يشير فيها أحدهم الى جماله الخارق ، وآخر الى روحه العالية وثالث الى مواهبه المتعددة وهكذا •• وقد كان «ليوناردو» أحد هؤلاء الذين يأتون من الأعمال ما يسعدون به الغير • ويمكننا أن نقول انه كان ممتعا بطبيعته • فقد كان ينظم الأغاني ، كما كان يصنع الآلة الموسيقية التي يعزف عليها بنفسه • وكان يحلو له أن يخترع أشكالا جديدة • الا أن معظم نهاره كان يمضيه مع زملائه في معاونة أستاذهم في صناعة التماثيل أو الأعمال الهندسية المعمارية أو الرسم •

وقد اشتغل « ليوناردو » كثيرا في بيت أستاذه وبدا مسرورا بعمله أكثر ، الى حد أنه أقام في هذا البيت فترة أطول مما تم الاتفاق عليها • فقد أطل على عمره العام السادس والعشرون وهو عند « فيرتشيو » •• وخلال هذه الفترة قام « ليوناردو » بكثير من الأعمال لا لأن هذه الأعمال طلبت اليه بل لأنه كان مولعا بالعمل شأنه في ذلك شأن أستاذه والذين يعملون معه • فقد كان يثلج صدره أن يجرب الجديد من الأدوات والمستحدث من الأساليب • وقد تعلم كيف يزين السقوف من الداخل والخارج على حد سواء ، وأتقن كل سبيل وكل خدعة تضمنتها مهنته ، ثم أضاف اليها من ذاته غير قليل من التجديد • من بين الأعمال التي كانت تطلب من العاملين في « الاستديو » تصميم ملابس المهرجانات • وقد أصدر «لورنزو دي مديتشي» قرارا باقامة مهرجان ، احتفالا بحدثين مزدوجين هما نهاية الحرب الأهلية ونهاية وباء الطاعون ، ذلك الوباء الذي كان ينتظره الايطاليون مع لهيب الجو الحار في كل عام • وكان الأغنياء يفرون من الوباء بمغادرة المدينة في الوقت المناسب ، ولا يعودون اليها حتى ينتهي موسم الوباء • وكان الشتاء هو موعد المهرجان حيث تخف وطأة الوباء •

وقد درج « لورنزو » على اقامة الكثير من المهرجانات تخفيفا عن الشعب المغرم برؤية المواكب ، وكان المهرجان عرضا كبيرا يسير فيه النبلاء وسط المدينة وقد ارتدى كل منهم من الملابس أزهى وأجمل ما يخطر على خيال بشر •

انغمس « فيرتشيو » وتلاميذه في التحضير للمهرجان فقد أحس الفنانون الشبان بالفخر والكبرياء وهم يشاهدون آل «دى مديتشى» لورنزو ثم أخاه الأصغر منه « جوليانو » مع جميع النبلاء والثراة من القوم وقد تزينوا بحلى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وعليهم ملابس مطرزة باللآلىء والجواهر تخطف الأبصار ببريقها ولمعانها وأضوائها وهم يشقون طريقهم فى أبهة ملكية بين قصور فلورنسا • وبدا الأمر كما لو كان رئى فى بلاد مسحورة • وكان الفنانون يحبون « فلورنسا » بسبب المهرجانات الرائعة التى تفنن فى اقامتها « لورنزو » •

ويمكننا أن ندرك والأمر كذلك سر ما تعكسه تلك المواكب على رسوم الفنانين ، فكثيرا ما نجد لوحاتهم تصور الجياد وعليها سروج مرصعة بالجواهر يركبها الأمراء الشبان عبر طرق « توسكانيا » المنحنية وفى الخلف من الصورة نرى منحنيات الجبال الموشاة بالزهور تحتضن قمم القلاع المنحدرة على مدى البصر • ان السماء الصافية الممتعة وقد عبقت بالشمس الايطالية المشرقة •• ذلك الجو وحده كان كفيلا بأن يجعل كل انسان يحس أنه يستطيع الرسم •• ولا شك أن « ليوناردو » كان يمكنه ذلك •

هذا الوجود السعيد له أيضا جانب كريه • فقد كان لدى «لورنزو» من الأعداء ما فيه الكفاية حتى ولو كان أقدر الناس على التصرف السليم فى « فلورنسا » ، فقد كانت هناك عائلة « بارى » التى تبغضه وكان «لورنزو» حجر عثرة دائمة فى طريق أفرادها ، حتى أنهم صمموا آخر

الأمر على أن يضعوا نهاية له • وكان من اليسير أن يجدوا حلفاء لهم فقد كان أفراد من أسر أخرى مرموقة مستعدين للمعاونة • كانت الخطة تهدف الى القضاء كلية على آل « مديتشى » باغتيال «لورنزو» وأخيه الصغير « جوليانو » ، وحددوا السادس والعشرين من ابريل عام ١٤٧٨ تاريخا للمؤامرة ، فى ذلك اليوم تسلل عدد من المتآمرين الى داخل كاتدرائية « الديومو » الكبيرة فى حين كان « لورنزو » وأخوه يؤديان الصلاة ، وانقضوا عليهما فأصيب « جوليانو » بجرح خطير قاتل ، أما « لورنزو » وكان رجل سيف يجيد المبارزة فقد شق طريقه بعيدا عن المتآمرين الذين تصدوا له دون جدوى وفر الى داخل الكنيسة •

كانت خطة المتآمرين تقضى بقتل الأخوين والاستيلاء على السلطة على مرأى من الشعب ومسمع • ولكن نجاة « لورنزو » جعلتهم يدفعون الثمن غاليا • فشنق بعضهم على مشهد من الشعب خارج نوافذ « بالازدفيتشيو » التى يمكن للمرء رؤيتها اليوم كما كانت اذ ذاك ــ وقد تدلت الأجسام عبرة وعظة من النوافذ ، وقطع الآخرون اربا اربا وألقى بهم فى جوف نهر «أرنو» ، وبالجملة فقد ثمانون شخصا أرواحهم فى ذلك اليوم •

فر واحد من المتآمرين وكان من زعماء العصيان ويدعى « براندو باندينو بارونسيللى » ، ذلك أنه لم يهرب من الكاتدرائية كما هرب الآخرون وانما تسلل الى برج الأجراس حيث قبع فى حجرة منها حتى سكنت العاصفة ثم فر الى الخارج ولم يلق القبض عليه الا بعد عام ونصف عام من ذلك الحادث •

كان الفنانون فى ذلك الزمن يقومون بالعمل الذى ننتظره اليوم من المصورين الفوتوغرافيين ، وكان أولو الأمر فى « فلورنسا » بحاجة الى رسم ــ كأنه صورة ــ لضحايا الاعدام يحتفظون به عبرة لمن تسول له نفسه فى المستقبل القيام بمثل ذلك • عهد بهذا الأمر الى « بوتشللى » وهو

فنان معروف لنا بأنه صاحب لوحة « بريمافيرا » ــ وكانت مهمته هي تزيين برج قصر رئيس الشرطة بصورة للأشخاص المشنوقين وقد نال « بوتشللي » جزاء طائلا مقابل هذا العمل الذي يمكننا رؤيته حتى اليوم •

سمع « ليوناردو » عن هذا العمل بشوق بالغ • فعلى الرغم من أنه كان في السادسة والعشرين وكان له حظ من الشهرة فانه كان سيىء الحظ قليل المال • وبالنسبة لعلاقته بأبيه فانه يمكننا أن نقول ــ وان لم يكن ذلك مؤكدا ــ انه لم يكن اذ ذاك على علاقة طيبة مع أبيه لأنه كان لا يزال يعيش في بيت « فيرتشيو » وكانت زوجة أبيه قد ماتت وتزوج بالثالثة التي أنجبت له ولدا • ومن المحتمل أن يكون « بيرو » قد فقد الاهتمام « بليوناردو » •

في شهر ديسمبر من السنة التالية ألقي القبض على « برنادو دي باندينو بارونسيللي » وقدم للمحاكمة وأعدم •

ذهب « ليوناردو » ورسم « اسكتش » للمشنوق كي يعرضه على المسئولين ، غير أنهم كلفوا « بوتشللي » وما زال « الاسكتش » موجودا وعليه الملاحظات الدقيقة التي دونها «ليوناردو » ، انها تمنحنا شعورا صادقا بالمدى الذي يستطيعه الشخص لأن يكون عمليا في موضوع كهذا الى أبعد الحدود • فنجده يكتب على الاسكتش : قبعة صغيرة لونها لفحته الشمس ، سترة زرقاء مخططة بأعناق الذئاب ، ياقة لها أشرطة سوداء وبيضاء من القطيفة • ذلك هو « برناردو دي باندينو بارونسيللي » في جورب أسود •

الفلورنسى الأجن

لم يكن « ليوناردو » يحس أنه جزء من الأحداث التى تقع حوله وان كان غيره من الفلورنسيين قد أثارت مشاعرهم معارك « آل مديتشى » الا أنهم فى الأحوال العادية لم يكونوا قوما تسهل اثارتهم فهم ميالون الى العمل فى سلام ، منصرفون الى البيع والشراء أو صنع مايباع وما يشترى. غير أن محاولة عائلة « بازى » فى القضاء على سلطان آل « مديتشى » وما ترتب عليه من اعدام الكثيرين ، كل ذلك كان حتميا فى أن يجعل له أثرا فيما بعد .

صمم أصدقاء عائلة « بازى » بما فيهم « البابا » فى روما أن يقوضوا سلطان « لورنزو » المتعالى قبل أن يزداد قوة وسلطانا ، فتحالفوا مع ملك « نابولى » الذى جرد جيشا لغزو « فلورنسا » يسانده ويشاركه الجيش البابوى . ملك الرعب قلوب «الفلورنسيين» لأنهم كانوا يكرهون الحرب ، وعهد « لورنزو » الى أحد المهندسين الحربيين باعداد الدفاع عن المدينة .

كانت الأسلحة النارية حديثة الاستخدام فى الحروب حين ذاك ، ولم تكن هذه الأسلحة أكثر من بنادق أو مدافع كبيرة ، ولكنها بدت مفزعة لأولئك الذين تهددوا بها وان كنا اليوم نعتبرها بسيطة .

خلبت هذه الأسلحة لب « ليوناردو » وكان اهتمامه بفاعليتها يحجب عنه الغرض الاجرامى منها ، ويحجب عنه أسلوب استخدامها الذى من أجله رأت النور .. فعمد الى وضع عدة تصميمات وخطط «اسكتشات» لمدافع ومركبات مدافع جديدة ، فاخترع مدفعا لا يحدث الدفعة الناشئة

عن رد الفعل في انطلاق القذيفة التي تجعل المدفع يرتد قليلا الى الخلف، كما اخترع بندقية ميكانيكية •

ولكن شيئا من هذه الاختراعات لم يخرج الى حيز التنفيذ ، ولم يذكر واحد من المؤرخين شيئا عنها • وبالرغم من يقيننا بأن « لورنزو » لم يستخدمه في عمل من أعماله الا أنه ظل يمارس هذه الأشياء ، لأنه كان مولعا بهذا العمل ومغرما باستخدام عقله في مختلف التجارب • وما زالت لدينا « الاسكتشات » والمخطوطات التي تقيم الدليل على أن « ليوناردو » كان يتقدم عصره بمئات السنين في المقدرة الميكانيكية •

لما بلغ « ليوناردو » السابعة والعشرين اكتسبت رسومه شهرة ذائعة، وبدأ نزعة جديدة في الرسم •

نعرفها الآن باسم «المادونات» التي تشبه الأمهات الحية للمرسومات • وقد رسم مجموعتين جميلتين لموضوعات دينية أثارت الاعجاب الى حد أن كل رسامي فلورنسا الآخرين أخذوا يقلدون أسلوبه الجديد •

ان يكن الجمهور قد أقر بعبقرية « ليوناردو » المدهشة في العمل الا أنهم زعموا ـ وهذا صدق ـ أن « ليوناردو » من أكثر الناس الذين لا يطيب للمرء التعامل معهم • ذلك أنه كان بارد القلب في انجاز الأعمال• لم يكن الزمن يعني شيئا عنده اذا سنحت له فرصة تمكنه من تأدية العمل على نحو أفضل • وكان من عادته أن يترك الرسم ينتظر أسابيع وشهورا وسنوات اذا دعت الضرورة ، بينما هو منهمك في تجربة جديدة لصحن الألوان أو اعداد مسطح يرسم عليه •

عندما تطلب امرأة شابة جميلة رسم صورة لها ، فهي تتوقع انجاز الصورة في زمن معقول ، ولكن « ليوناردو » يجعلها تنتظر •• وتنتظر حتى تبدو أكبر مما كانت وأقل شبابا •• عندئذ ترجع عليه باللائمة وتشكو سوء معاملته الى صاحباتها •

وفى صورة أخرى كان « ليوناردو » غير موفق فهـو يقبل مقدما مبلغا من المال لقاء مواد مطلوبة لبعض أعماله ، ثم يستغرق من الوقت فى هذا العمل ما يذهب بصبر صاحبه الذى لا يجد بدا من أن يعهد بنفس العمل الى فنان آخر . ولا يكون طبعا بمقدور « ليوناردو » رد المبلغ ولعل عدم التوفيق هذا يفسر لنا لـِم لم تخرج مخترعات « ليوناردو » الكثيرة والصائبة الى حيز التنفيذ .. فلم يكن فى فلورنسا تاجر واع يأمن أن يسلم « ليوناردو » أية بضاعة .

لهذه الأسباب جميعا لم يكلفه « لورنزو » بعمل ، وعلى أية حال فقد سوى أمر الحرب قبـل أن توضع كثرة من هـذه الآلات الميكانيكية موضع الاختبار بغض النظر عن مخترعها . فقـد طارد الجيش البابوى جيش «فلورنسا» حتى أسوار المدينة .. وفى ذلك الوقت كان «ليوناردو» قد توصل الى اختراع آلات عجيبة للدفاع عن أسوار المدينة . ولم يتم صنع هذه الآلات ولم تستعمل على الاطلاق ، فقـد أعلنت الهدنة بعـد استيلاء القوات البابوية على قلعة تبعـــد ثمانية أميال عن فلورنسا وكانت مدة الهدنة ـ كما أعلن عنها ـ ثلاثة شهور كى يستريح المحاربون .

لم يكن اعداد الجيوش فى الدويلات الايطالية ، على نحو ما نفعل بجيوشنا اليـوم ، أعنى عن طريق طلب المتطوعين .. الخ ، وانما كان الأمراء يستأجرون جنودا مرتزقة ، وكان الجندى المرتزق يؤدى عمـــلا شأنه فى ذلك شأن أى صاحب حرفة أو مهنة .

فهو يتفق على الحرب من أجل أمير ، وهو يحارب فى صفوفه مادام يدفع له أجره . ولم يكن القتال وحشيا الى حد ما ، فقد كانت قوات المرتزقة تقوم بالالتفاف حول المكان ، وكان حصارهم هينا ، وفى بادىء الأمر كانوا يفضلون عدم استعمال البنادق الثقيلة كلما أمكنهم ذلك لصعوبة نقلها .. الا أنه شيئا فشيئا أصبحت البنادق شائعة الاستعمال الى الحـد الذى لم يعد معه مفر من استخدامها .

وفي وسط المعركة كان الجندى المرتزق أحيانا يجد نفسه مقاتلاضد مرتزق آخر كان زميلا له فى حرب سابقة فى مثل هـذه الظروف على ما يمكنك أن تتخيله • لم تؤد هذه الاشتباكات الى اراقة كثير من الدماء وبعد المعركة كان المنتصرون يحررون الأسرى لمجرد أنهم لا يعـرفون كيف يتصرفون حيالهم ، وماذا يفعلون بهم •

أما عن الحرب ضد « فلورنسا » ، فقد رأى « لورنزو » أن الهدنة تعطيه فرصة أن ينهى الأمر فى شجاعة تامة ، قصد الى « نابولى » وتفاوض مع ملكها • واتفق على تسـوية الأمر وعاد السـلام يرفرف على ربوع « فلورنسا » • عند ذلك لم يجد « ليوناردو » ما يستحث استمراره فى تصميم الأسلحة النارية • وكان الجميع فرحين مستبشرين بالسلام فقد كان أهل ذلك الزمن فى رعب من حرب أيامهم بالقدر الذى نحسه من حرب أيامنا •

أتاح السلام فرصا من العمل للفنانين فى المدينة عدا « ليوناردو » فكلما زادت شهرته كلما زاد اعراض الناس عن تكليفه بعمل • وما زال لدينا من لوحات هذه الفترة ما ينطق بما كان يمكن أن تكون عليـه لو قدر لها التمام • فقد كان « ليوناردو » قبل أن يتم اللوحة يصر على عدم رضـائه عنهـا وأنها ليست كما ينبغى ، وينصرف عنها بالاعـداد للوحة أخرى •

من المحتمل أن يكون « ليـوناردو » قد أدرك سر هروب طلبات العمل من طريقه ، ولكن ذلك لا يقلل من مرارة الحقيقة بأن أناسا لم تتوافر لهم نصف موهبتـه قد غدوا أغنيـاء موفورى الكرامة • وكان « ليوناردو » برما بهذا الحال ، ثم قاده التبرم الى كراهية فلورنسا ومليكها « لورنزو » ، ذلك الملك الذى لم يكلف « ليوناردو » أبدا أن يرسم له شيئا برغم تقـديره المعـروف للفن ، كما بغض العلماء المشـهورين فى فلورنسا ، أولئك الفلاسفة الذين يمضون الساعات الطوال فى مناقشـة

عمليات العقل وكنه الحقيقة • وبطبيعة الفنان نراه يضمر الاحتقار لهؤلاء الذين يستخدمون عقولهم فقط ولا يعملون بأيديهم • كان يرى نفسه قادرا على معرفة الطريق الذى تفضى اليه الأمور وفى نفس الوقت يمكنه عمليا البرهنة على صدق نظرياته ، فى حين أن هؤلاء الفلاسفة عقليون فقط ، ومع ذلك فقد كانوا موضع تقدير لم ينله هو ، ونراه يكتب فى مذكراته :

« انهم يسيرون فى الأرض زهوا وكبرياء عليهم سراويل مزينة بالجواهر ، ليست من نسج أيديهم ولكنها من أعمال الآخرين ، انهم يرفضون الاعتراف بأعمالى ، انهم يزدروننى أنا المخترع ، ما ذنبى أنا انهم ليسوا مخترعين ، انهم فقط مجرد أبواق ومعيدى أعمال الآخرين ، انهم يدينون للطبيعة بالفضل القليل لأنهم بمحض المصادفة يرتدون ملابس ، وبذلك يمكن التمييز بينهم وبين قطعان الماشية » •

صمم أخيرا أن يتخذ خطوة هامة وأن يغادر « فلورنسا » وذهب الى « ميلان » فى الشمال • وكان الفنانون من أبناء القرن الخامس عشر يعتمدون على الأغنياء ، فقد كان على الواحد منهم أن يؤجر نفسه لبعض الخاصة فتراهم يرتبطون بالبيوت الكبيرة ، ولم يكن ذلك الارتباط فى هيئة خدم ، وانما كان فى صورة شىء قريب من ذلك • فقد كان الثرى عندما يلتزم بفنان نراه يدفع له ثمن بعض لوحاته ، ثم يساعده فى عرض بعض اللوحات الأخرى على أصدقائه من الأغنياء الذين على شاكلته ليشتروا منها ، ثم يساعده بتقديم هدية له فى المناسبات بين الحين والحين • وكان يطلق على هؤلاء الأغنياء كلمة « رعاة » وكان الفنان المحظوظ من يجد راعيا كريما •

وعلى نحو ما رأينا فى السطور السابقة لم يفلح « ليوناردو » فى الحصول على راع • وعندما كان يفكر فى موهبته الفذة نجده يحس أنه كان جديرا بالراعى الأول فى فلورنسا « لورنزو دى مديتشى » •

قرر « ليوناردو » شد رحاله الى « ميلان » ، وهو قرار ليس بالهين في ذلك الوقت • فكان لزاما عليه أن يرتب أمره بعلاقة تربطة برجل قوى فى المدينة الجديدة ، ولأول مرة أضحى محظوظا أو بدا كذلك ، اذ حصل على خطاب توصية الى « لوديفيكو سفورزا » حاكم « ميلان » وكان هذا الحاكم يدعى « لوديفيكو آل مورد » أو « لوديفيكو المور » وذلك للون بشرته السمراء • ومن الناحية القانونية لم يكن « لوديفيكو » الحاكم الحقيقى ، وانما كان يحكم نيابة عن ابن أخته الدوق « جيان جاليزو سفورزا » وكان «لوديفيكو» مؤملا فى التخلص من «جيان جاليزو» في أقرب فرصة لينفرد بالحكم وهو الرجل القوى فى الأسرة •

لم يجد « لورنزو دى مديتشى » غضاضة أن يوصى خيرا بالفنان الذى غمطه حقه ، فقد أعجب كثيره من أهل « فلورنسا » بأعمال « ليوناردو » فى المرات القليلة التى رآها فيها • والآن وقد نجح فى استرعاء نظر «ليوناردو» نراه قد كسب موافقته باختراع احدى المبتكرات التى تفوق فى صنعها • كانت قيثارة فريدة ، صنعها من الفضة على شكل جمجمة حصان ، وكانت الأسنان بمثابة ركائز الأوتار فى القيثارة ، كانت ابتكارا ذكيا وشيئا جديدا طريفا لاخراج النغم • قرر « لورنزو » أن يبعث بها هدية الى « لوديفيكو » الذى كان حليفه فى جميع حروبه وسوف يرى « لوديفيكو » الى أى حد بلغت مهارة فنانى فلورنسا ، ومن ثم فقد ترك « ليوناردو » فلورنسا فى بواكير أيام سنة ١٤٨٢ وبه قليل من أسف على ما فات وكثير من أمل يرجوه فى مخاطرته الجديدة •

كانت « ميلان » تشبه فلورنسا فى جمالها وثرائها ، وتشبهها فى اعتماد ثروتها على صناعة المنسوجات • وكان أهل ميلان يشتهرون بالمقدرة الحربية ، كما كان أهل الريف فى « ميلان » يشتهرون بتربية دودة القز ، وفى المدينة كانت المناسج تصنع أبهى الحرائر اللامعة • وكانت

المنسوجات الحريرية والصوفية التى تنتجها « ميلان » تغمر الأسواق فى طول البلاد الايطالية وعرضها •

هكذا كانت أوجه الشبه بين فلورنسا وميلان فاذا تحدثنا عن أوجه الاختلاف فاننا لا نجده فى المنظر الذى حول المدينة فقط ـ اذ كان سهل « لمباردى » عوضا عن تلال « توسكانيا » ـ وانما نجده أيضا فى النظرة الى الفن والصناعة •

كانت فلورنسا ـ تقليديا ـ بيت النحاتين والرسامين ومهندسى العمارة والموسيقيين ، وفى ظل رعاية « آل مديتشى » ازدهر هـؤلاء الناس وطار صيتهم سنة بعد أخرى • أما «ليوناردو» فقد كان استثناء على نحو ما رأيناه كان بعض هذا يرجع الى خطئه هو اذ كان شديد التدقيق فى عمله •

أما فى « ميلان » فقد كان الفنانون لا ينالون من الأجر الا قليلا، ولم تكن للفنانين الميـــلانيين الرغبة ولا الدقة ولا الـكرم الذى لزمـلائهم الفلورنسيين • وما كانوا يرحبون مثلهم بالأفـكار الجـديدة الوافدة من الخارج • فأى صاحب مهنة يتقن مهنته كان يحظى بالترحاب فى فلورنسا بغض النظر عن المكان الذى قدم منه • أما فى ميلان فقد كانت غيرة أهل الحرف من زملائهم الأجانب مفزعة • وكانوا ينفرون من استخدامهم فى أية صورة • وكان العمال غالبا يرفضون بناء القصر أو الكاتدرائية التى لم يضع تصميمها ميلانى ، حتى ولو لم يوجد الميلانى الكفء الذى يؤدى العمل على النحو السليم •

لقد كانت وجهة النظر هذه الى الأمور غريبة على « ليوناردو » الذى كان دائم السؤال والاستفسار فى الأيام الأولى والعصيبة من اقامته فى ميلان • ولم يجد فى هذا الأسلوب عونا له على هذه الأيام القاسية •

لم يكن « لوديفيكو » يعبأ بالفن الموضوعى كثيرا ، فقد كان مولعا بلذائذ الحياة ، فهو يحب الملابس الفخمة والطعام الشهى والخمر الجيدة

والجواهر النادرة ، ويفضل هذا كله على رسوم الجدران أو الاختراعات المعقدة • وكان ما يعنى به من الصور هو الصور العائلية •

ومما يوضح لنا شخصية « لوديفيكو » وطموحه على حقيقته أن العمل الذى رأى أن « ليوناردو » يمكنه انجازه يكلفه به ، كان يبغى تمثالا ضخما لأبيه « فرانسسكو سفورزا » الحاكم السابق لميلان ممتطيا صهوة جواده • ان خلق هذا التذكار الضخم قد فاق قدرة أهل الفن فى ميلان ، الا أنهم برغم ذلك عارضوا عندما اقترح اسم « ليوناردو » ، من أجل هذا ، ولأن السادة الكبار غالبا ما يبطئون ويسوفون ، لم يخبر «لوديفيكو» « ليوناردو » فى محادثته الأولى أنه يريد من الفلورنسى أن يشرع فى العمل • وبدلا من ذلك نراه يسال ماذا يمكن ان يعمل هدا الأجنبى بصورة جيدة •

وضع « ليوناردو » عندئذ قائمة بمواهبه وقدراته ، وانه لعمل عجيب اذ تبدو القائمة من الوهلة الأولى ذاخرة بالفخر ، ولكنك اذ تدرسها تتحقق أن « ليوناردو » انما كان يقول ما يبدو له حقيقة واضحة •• ثم هو فى الوقت ذاته كان يظهر بمظهر من يمكن الافادة منه فى شتى المجالات محاولا أن يبيع نفسه ولكن بحقائق يمكنه اقامة الدليل على صدقها • ومما تعدد من « ليوناردو » فى مقترحاته يمكننا أن نقدر الى أى حد بعيد كان يتقدم كل عالم فى عصره ، كتب « ليوناردو » فى قائمة مواهبه :

١ ــ ان لدىَّ طرقا لبناء «كبارى» خفيفة وقوية يمكن نقلها بسهولة فائقة •• تزود بوسيلة لملاحقة العدو والهرب منه عند الضرورة • وأخرى ضد العطب والنار ، سليمة ومطمئنة فى أى اشتباك ثم هى فوق ذلك سهل فكها واعادة اقامتها • وأعرف كذلك كيف أدمر كبارى الأعداء باطلاق النار عليها • وكان « ليوناردو » قد اخترع طريقة من الكبارى وتوسيعها ورسم اختراعه لتبسيطه لقارئه •

٢ ـ اذا فرض حصار على قلعة فانني أعرف كيف أفرغ المـاء من الحفر وكيف أشيد كبارى الحصار وسلالم التسلق وآلات أخـرى • ثم أضاف ليوناردو عددا من المقترحات تجعل من اليسـير تسـلق الجدران بحديد التسلق وأخرى من السقوف المحمولة على عجلات والتى من شأنها أن تحمى المهاجمين فى القتال •

ونرى « ليوناردو » يوصى بالخنـادق والسراديب واحكام وضـع الألغام فيها تحت القلعة ، أو نراه يقول : اذا كان هناك نهر فى متناول اليد فانه يمكن تحويل مجراه وارساله ضد العدو • وكان أول من فكر فى ذلك • وقد استمر يعدد فى قائمته أوجه العمل الذى يستطيع القيام بهـا •

لقد اخترع « ليوناردو » المدافع الخفيفـة والقنابل الحارقة ، وقد أنتجت واحدة مماثلة لاختراع « ليوناردو » بعد ما يقرب من أربعمائة سنة ، ولم تنتج مطلقا قنبلة « ليوناردو » ، والواقع أن معظم انتاج قريحته فى مضـمار الآلات لم ير النـور وانمـا ظل فى نطاق التخطيطات التى وضعها على الجلد أو الورق •

وقد اخترع « ليوناردو » أيضا أشـياء أخرى كثيرة لم تكتشـفها البشرية الا بعده بسنين طويلة مفرطة فى الطول •• فقـد اخترع قنبلة تماثل قنبلة « شرابنل » ، وقاذفة لهب ، والقنبلة اليدوية ، واخترع عربة مصفحة بالسلاح كالمدرعة وقد رسم صورة لها ، كما اخترع آلة مربعة تدور على أسنان وظيفتها تقطيع المحاربين اربا اربا • ومن حسن الحظ أن أحدا لم يضع واحدة من هذه النظـريات موضـع التنفيذ فتجنب البشر بذلك كثيرا من أسباب الدمار لقرون قليلة قادمة •

لم يكن « ليوناردو » متعطشـا للدماء بل ما كان يمكن لامرىء أن يكون أكثر منه بغضا لها ، وانما كان الأمر منحصرا فى اغراء الآلات له

وتملكها ناصية عقله وفكره ، فأغرق فيها الى أن نسى الغرض النهائى من استخدامها • فقد كان بامكانه أن يسهم بأفكار سلمية أيضا ، ولكنه أراد أن يستحوذ على « لوديفيكو » بفكرة أنه رجل يطيب للمرء أن يجده بجانبه ساعة تدق طبول الحرب ، وكانت الحرب احتمالا عاديا فى « ميلان » •

اكتشف أيضا قوة البخار ولكنه لم يذكر فى اختراعاته صنع مدافع تعمل بقوة البخار وان كان قد فكر فى نوع من الغاز السام فى شكل مسحوق •

وبعد أن عدد هذه الأسلحة جميعا فى زمن الحرب نراه فى النهاية يقول : وفى زمن السلم أستطيع أن أحوز الرضا فاننى أقبل المقارنة بأى شخص آخر فى العمارة وتصميم الأبنية سواء العامة منها أو الخاصة وكذلك فى توصيل المياه من مكان الى آخر •

ويقول أيضا : سوف أقوم بأعمال النحت من المرمر والبرونز والطين وكذلك الرسوم من كل نوع ، مما يقف شامخا أمام مقارنته بعمل أى فنان آخر مهما كان ، وسوف يمكننى كذلك من أن أقوم بصنع الحصان البرونزى الذى سيكون مجدا خالدا وتكريما لا يبلى لذكرى والدكم المكرم ولبيت « سفورزا » المجيد • وان ظهر أن أيا من الأعمال السالفة الذكر ـ لأى شخص ـ يستحيل انجازها ، فاننى على استعداد فى أى وقت أن أضع العمل موضع التنفيذ فى حديقة قصركم أو أى مكان ترونه سيادتكم كى أقدم نفسى اليكم فى خشوع •

ولا عجب أن يغفل « لوديفيكو » هذا الخطاب غير العادى فأنى له أن يصدق حتى نصف ما جاء فيه ، ولم يأته نبى ينبئه أن هذه العجائب سوف تصنع وتستخدم فعلا بعد قرون ، ولربما ألقى بالخطاب جانبا وقال لرجال بلاطه وهو يضحك : ان « ليوناردو دافنشى » أجن رجل من فلورنسا التقى به فى حياته •



لوديفيكو المورو

تحقق « ليوناردو » بمضى الايام سدى أنه مُغْفل الأمر فى «ميلان» على نحو ما كان أمره فى « فلورنسا » • وفى الواقع كان أمره أكثر سوءا لأن أعماله فى « فلورنسا » لقيت الاعجاب ونقل الفنانون عنه عندما أبدعت يداه ما يستحق النقل •

حقيقة انه لم يجن مالا من وراء هذا التقدير ، ولكن « ليوناردو » لم يكن يعبأ بالمال اطلاقا الا عندما كان يحتاجه لشراء مواد جديدة أو ليطعم تلاميذه أو يكسوهم « فالفنان الذى يقيم مرسما ويكون له صبية يتدربون على يديه يصير لزاما عليه أن يتصرف حيالهم كأب وتصبح رعايتهم واجبا عليه » •

ويمكننا أن نعرف أحوال « ليوناردو » المعيشية بالدقة اذا نظرنا الى مذكراته فقد كان يدون فيها كل شىء حتى حساباته • كان قليل الطعام نادر تناول الخمور التى كانت غرام جيرانه من أهل « ميلان » •

لم يكن المال جل همه ، ان ما أراده بكل جوارحه ولم ينل منه الا القليل كان الثناء والتقدير ، كان تواقا الى المجد والشهرة بقدر ما كان أهل «ميلان» يتوقون الى المجوهرات والأزياء الفاخرة ، ولم يستطع «الميلانيون» فهم نظرته الى الأمور •

ظل «ليوناردو» طويلا يعلله الأمل فى أن يخبره «لوديفيكو» بأن يبدأ فى صناعة التمثال البرونزى • ولكن انتظاره ذهب سدى ، والأدهى من ذلك أنه سمع فيما حول المدينة أن « لوديفيكو » له سمعة سيئة فهو

مقتر على الفنانين فى حين أنه يسخو شيئا ما بالعطاء للموسيقيين والخياطين ومهندسى العمارة ، وحتى حين يكون مدينا للرسامين والنحاتين فهو لا يكاد يدفع لهم • وفى نفس الوقت لم يكن الأمير الميلانى مدينا «لليوناردو» دينا ثقيلا فهو لم يكلفه شيئا ، وحتى لو كلفه فان رجال بلاطه لم يبدو حماسا لهذا الفنان الجديد •

تسرب المال الذى جمعه «ليوناردو» قبل هجرة فلورنسا تدريجيا من يديه ، فبرغم احتياجاته الضئيلة كان لا بد له من شىء من المال يدبر به أمره • وكان أمثاله ومن فى مثل مركزه من أهل ميلان يشاركون فى العيش زملاء لهم محتاجين حتى تخف عن كاهلهم أعباء الحياة •

وهذا ما فعله « ليوناردو » آخر الأمر اذ نراه ينتقل الى مرسم زميل له يدعى « امبروجيو دى بردى » وهنا تحسنت أموره قليلا •

كان «أمبروجيو» رجلا مجتهدا فى عمله وان لم يكن رساما مجيدا، وقد نجح فى ايجاد عمل له ولزميله ، وكان فرحا بالمصادفة التى هيأت له العمل الى جانب « ليوناردو » الفنان الذائع الصيت ، وبالفعل تعلم منه كثيرا فى فن الرسم ، وقد تحسنت رسومه بقدر ازدياد أواصر الصداقة بينهما ونتيجة لمعاونة « ليوناردو » له فى العمل •

حصل الرجلان ومعهما أخ «امبروجيو» الذى كان يعمل حفارا للأخشاب على صفقة موفقة ، كانت الصفقة عمل ضريح له هيكل خشبى منحوت • وكان عقد الصفقة يمنحهم مهلة تزيد عن العام ومائتى «ديوكات» نقدا •

كان قد انقضى ما يقرب من عام على «ليوناردو» فى ميلان وكان الرهبان الذين عقدوا الصفقة فى غفلة من الأمر لم يتحققوا من أن « ليوناردو » يصعب الزامه بحد زمنى موقوت فى أداء العمل الموكول

اليه • ولو عرف الناس جميعا هذا الأمر لتضور « ليوناردو » جوعا حتى الممات •

الا أن هذا العقد كالعقود الكثيرة التى تلته أنجز فى وقته بفضل زميله فى العمل ، فقد كان «أمبروجيو» يأخذ «الاسكتش» الذى يضعه « ليوناردو » قبل أن ينفد صبره ويقوم هو بتنفيذه الذى يقل كثيرا عن مقدرة « ليوناردو » ويعده للمشترى وبذا حصلا معا على عمل أكثر باضطراد •

ولحسن الحظ كان الميلانيون مغرمين بنوع واحد من الرسوم فهم مثل «لوديفيكو» كانوا مغرمين بالصور العائلية ومن ثم فقد استمرا معا فى هذه الشركة الغريبة المربحة فأنتجا صورا متوسطة القيمة ، وبدأت ترغد حياتهما •

كان « ليوناردو » فى الثلاثين من عمره عندما قدم الى «ميلان» وتلكأ هناك عاما بعد عام فى انتظار الاعتراف بعبقريته على نحو ما كان ينبغى وعلى نحو ما جعله «لوديفيكو» ينتظر •

لم يكف « ليوناردو » عن محاولة التعلم وظل قلمه المكدود فى الكتابة كما ظلت ريشته فى الرسم • واتصل بأصدقاء له فى «فلورنسا» • وكان فى أوقات فراغه يرسم صورا لأكثر الناس بشاعة ودمامة ممن يلقاهم فى شوارع ميلان • ويظل يعمل فى هذه الرسوم طويلا حتى يكشف كيف يرتب الجلد طبقاته فوق فم ليست فيه سنة واحدة ، أو كيف تبرز أنف كريهة خارج الوجه • وكتب «ليوناردو» وصفا خياليا طويلا عن أزمة فى الشرق ، وكلها من الكتب القديمة التى قام بدراستها ليعرف شيئا عن تاريخ العالم • وكان يرسم المناظر التى تصور الأماكن التى حدثت فيها القصة ، وكانت رسومه على درجة من التفصيل والدقة جعلت الناس يعتقدون لفترة طويلة أنه زار الشرق فى الوقت الذى لم يبرح فيه ايطاليا •

استطاع « ليوناردو » أن يشغل وقته وأن يحصل على قوته بمشاركته « امبروجيو » مرسمه ، وبعد أن مضت سنوات سبع على « ليوناردو » فى ميلان أصابه بعض التقدير •

وانه من الغريب حقا أن هذا الرجل بعقله العظيم الذى تكهن بكثير من العجائب الميكانيكية التى لم تخطر على عقول أناس الا بعد قرون من زمانه ، من الغريب حقا أن يكون تصميم اللعب هو سبيله فى الحصول على التقدير • الا أن هذه هى الحقيقة : كان أشراف « ميلان » يحبون اقامة الحفلات البهيجة •• وسنحت فرصة للاحتفال بحدث كبير فى تاريخ أمتهم • فان حاكمهم الدوق الشاب « جيان جاليزو » قد اقترن بفتاة من البيت الحاكم فى « نابولى » كان اسمها « ايزابيلا أف أرجون » وقد خطر « لليوناردو » أن يقوم بتزيين قلعة الدوق استعدادا لهذا الحفل • كانت القلعة بناء متجهما من الحجر الأحمر القاتم ، فابتكر « ليوناردو » وسيلة يشق بها ممرا من تيجان الورد خلال ساحة الفناء يعلوه سقف من الأوراق المذهبة •

وفى الحال تحسنت سمعته اذ أعجب بهذه المعجزة مئات المدعوين الى حفل القران ، وشعر « لوديفيكو » بالفخر به ، وبدأ يعهد اليه بمهام أخرى كثيرة ، كان « ليوناردو » مستعدا بحيل أخرى كثيرة لبقية احتفالات القران ، غير أن هذه الحفلات لم تلبث أن تأجلت بسبب وفاة أم (ايزابيلا) فطرحت هذه الأمور المبهجة جانبا •

عندما انتهت أيام الحداد أصبح «ليوناردو» سعيدا غاية السعادة فقد كلف بمشروع بالغ الأهمية طالما تاقت نفسه الى عمله ذلك هو التمثال البرنزى العملاق يمتطى صهوته « فرانسسكو سفورزا » •

ظل هذا النصب التذكارى موضع نقاش سنين طويلة ، وقد عهد به الى نحاتين من قبل الا أن الأمر لم ينته الى شىء • وأراد ليوناردو أن يجعله بين النصب التذكارية أعظم ما رأت عين •

ولقد خامر الشك « لوديفيكو » فى مقدرة « ليوناردو » على تنفيذ هذه الأحجام الضخمة للتمثال ، ولفترة من الزمن أخذ « لوديفيكو » ينظر حوله خفية لعله يعثر على شخص آخر يمكنه الاعتماد عليه أكثر من اعتماده على « ليوناردو » ، ولو عرف « ليوناردو » هذا لتملكه اليأس • ولم يكن ليركبه الجنون الذى ركبه فى اعداد التمثال • ذلك أنه أخذ يجوب أرجاء ميلان يدرس الجياد ويرسم « الاسكتشات » لها ، ويبحث كيف يمكن له أن يوازن ثقلا من (البرونز) على النحو الذى يريد •

شرع فى صناعة نموذج الحصان رافعا قدميه الأماميتين مرتكزا على قدميه الخلفيتين ، كان يريده تمثالا ضخما وأن يستخدم ما مقداره مائة ألف رطل من (البرونز) وهو ثقل غير قليل على أرجل حصان حتى ولو كانت أرجل من (البرونز) ، وفكر •• هل يركز الأرجل الأمامية على شجرة ؟ •• ان هذا يبدو غير طبيعى وغير معقول •• اذن يركزها على جثة جندى صريع •• هذا يبدو أفضل •

دفع حادث يتسم بالحظ هذه الفكرة جانبا ، فقد انقضى عام على الحداد ومن ثم عهد « جيان » الى « ليوناردو » بالعمل على اعداد حفلة راقصة تكريما « لايزابيلا » وكان على الحصان أن ينتظر •

الايطاليون يحبون دائما الحفلات الراقصة ، وكانت هذه احداها ولا بد أنها كانت حفلة رائعة تستحق المشاهدة • فقد افتتحت « ايزابيلا » حلبة الرقص برقصة من نابولى وكانت ترتدى فستانا مذهبا ومعطفا من الساتان الأبيض • وتعاقبت الرقصات والمشاهد المبهجة • وكان الجميع يرتدون ملابس فاخرة ، كان معظمها من تصميم «ليوناردو» •

وفى منتصف الليل رفع الستار ، وفى لحظة خيم السكون وحدق الجميع فى المنظر ثم امتلأت الحجرة بالتصفيق الحاد ، لقد تفوق «ليوناردو» تفوقا فذا •

فقد بنى هيكلا ضخما يمثل نصف كرة أرضية مدهونة باللون الأزرق الغامق لتمثل السماء ، وبنى على جانب منها قمة جبل تمثل (الأوليمب) وكان المفروض أن الوقت فى دجى الليل والسماء مظلمة الا من النجوم المتلألئة بالنور • وقد وضع نجوما حقيقية رتبها على نظام « زودياك » الفلكى على نحو ما كان الاعتقاد بنظامها فى السماء ، وجعل الكواكب السبعة تدور فى أفلاكها مع القمر ومع نجوم المجرات السماوية التى ظلت تضىء وتتلألأ بالنور ، فقد جعل ليوناردو سيلا من النور يتحرك من خلفها بطريقة آلية •

وعلى هذا المسرح مثلت دراما كلاسيكية وتتابعت المجموعات تنحدر من قمة الأوليمب • وتتهادى على موسيقى • تشنف الآلة آذان الضيوف وتغرق بأنغامها ضوضاء الآلة المحركة خلف المسرح ، تلك الآلة التى أقامها ليوناردو بطريقة مبتكرة • كان من بين مواد الحفلة الى جانب الرقصات والأغانى قصيدة نظمت وألقيت خصيصا « لايزابيلا » ضيفة الشرف وكانت هذه هى الطريقة المألوفة للتعبير عن الولاء والاحترام •

وقد أطلق على هذا الحفل مهرجان الفردوس • وظل أهل ميلان وغيرها من الولايات يذكرونه سنوات طويلة •

قد يبدو لنا هذا الأمر قليل الشأن نحن الذين ألفنا المشاهد الرائعة على مسارحنا ولكن الأمر كان جديدا على العالم اذ ذاك • فى حين كان الأمر سهلا على « ليوناردو » ، فقد كان فى مقدوره أن يصنع أى شىء ميكانيكى وقد أسبغ نجاح هذا المهرجان على « لوديفيكو » حلل السرور والسعادة الى حد أن جعل من نفسه وليا « لليوناردو » فى نهاية الأمر ولم يعد بعد هذا ثمة مجال للحديث عن شخص آخر يصنع التمثال البرنزى •

أصبح بامكان «ليوناردو» أن يرحل عن استديو « أمبروجيو » وأن

يقيم فى قلعة « لوديفيكو » الكبرى فقد كانت المكان الذى يسعى اليه ولم يمنح مكانا للسكنى ومرسما فحسب بل كان له الحق فى استخدام حجرة وسمح له بغلق الحجرة الكبيرة فى أثناء غيابه فقد كان رسام البلاط الرسمى •

اصطحب « لوديفيكو » فى عام ١٤٩٠ «ليوناردو» معه الى « بافيا » وهى مدينة تقع تحت حكم آل «سفورزا» ليساهم بخبرته فى بناء كاتدرائية كان يجرى العمل فى بنائها هناك، وكان اهتمام آل سفورزا ببناء الكاتدرائية يرجع الى شقيق « لوديفيكو » الذى كان « كردينالا » • لم يتمخض عمل «ليوناردو» فى الكاتدرائية عن أشياء هامة وانما أفادته الرحلة فى ذاتها فهو لم تقع عينه من قبل على بلاد غير قريته « فينشى » مسقط رأسه و « فلورنسا » و « ميلان » •

كان لقلعة «بافيا» مكتبة شهيرة يؤمها الدارسون من كل مكان وأسندت ادارتها الى رسام البلاط الذى أنفق الكثير من وقته فى دراسة مجلداتها • وكان «ليوناردو» دائم الاحساس بأن التعليم ينقصه وكان يعترف أنه يشعر وكأنه ريفى ساذج فى حضرة أهل العلم الحقيقيين •

وما ان سنحت له الفرصة حتى أخذ يلتهم من العلم ما يستطيع اليه سبيلا ، فلما عاد الى « ميلان » والى حجرة تجاربه الخاصة أخذ يواصل اختباراته ونظرياته وهو أشد حماسا وأكثر تطلعا •

أغرم « ليوناردو » بالفنون المعمارية ، وظلت لأسابيع طويلة تغريه عما سواها ، ولا شك أن نقطة البداية التى انطلق منها تفكيره كانت كاتدرائية «بافيا» ومشكلاتها ، فما أن أمسك بأول الخيط حتى سار فى الطريق الى نهايته • كان يحلم بتصميم مدينة جديدة مبانيها أقرب ماتكون الى ناطحات السحاب الشاهقة • وكان التصميم الذى وضعه يهيىء للطبقة الارستقراطية من الأغنياء ، ابتعادا عن الضوضاء والحركة والروائح التى

غص بها القرن الخامس عشر ، على أن يقوم العمال بأعباء الحياة اليومية الشاقة فى الطبقات السفلى من العمارات ، ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه المدينة انما قامت على الورق فقط •

بدأ «ليوناردو» دراسة الضوء بعد عودته من «بافيا» ، فقد قرأ كتابا فى الضوء جعله يفكر كثيرا فى النظرية التى تعارفها الناس وقت ذاك وفحواها أن العين ترسل أشعة الى المرئيات ، وأن هذه الأشعة تعود الى العين ومعها الصورة التى تدركها النفس •

وكان فكر « ليوناردو » مع فكر الناس مؤمنا بهذه النظرية ، الا أنه فجأة قرر أنه لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، فنراه يكتب فى مذكراته : « من المستحيل أن ترسل العين من ذاتها أشعة الرؤية التى تحمل القدرة على البصر » •

ومن ثم لعب « ليوناردو » دوره مع الضوء فاكتشف التجربة التى ما زلنا نعرفها جيدا حتى اليوم ، اذ أخذ قطعة من الورق وثقبها ثقبا صغيرا، وأخذ يرقب سير الضوء فى خطوط مستقيمة وخروج الضوء من الثقب على هيئة قمع ، ولم يلبث أن اكتشف السبب الذى من أجله تنقلب الصورة ما لم تصحح عدسة وضع الأشعة الضوئية ، ومن هـــذا الاكتشاف قصر الطريق نحو دراسة العين ذاتها ودراسة عدساتها فلم ينقض عام الا وكان «ليوناردو» يقوم بدراسات تشريحية ، ورسم تشريحاته وتجاربه التى تعتبر من أدق الرسوم التى خلفها ومن أجملها •

اخترع « ليـوناردو » مصـباحا قوى الضــوء نتيجة معـرفته الضوء والانعكاس ، وكان المصباح القوى الضوء الذى اخترعه « ليوناردو » فى الوقت الذى كان غيره من الناس يشــقون ويكدحون فى الليــل فى ضوء خافت ينبعث من شريط صغير بائس ، يحترق فى اناء من الزيت ، كان المصباح الجديد عبارة عن كـرة من الزجاج تشبه آنية الســمك وأدخل

ليوناردو » فيها اسطوانة زجاجية وملأ الكرة بالماء ووضع في الاسطوانة مصباح زيت الزيتون بشريط صغير • وهكذا تضخم حجم اللهب وحصل ليوناردو » على مزيد من الضوء الباهر •

تحسنت أوضاع « ليوناردو » وتحسن مركزه فطرق بابه طلبة يريدون الالتحاق بمرسمه ويلحون في رجاء قبولهم • وقد قبل «ليوناردو» هؤلاء الصبية طواعية واختيارا ، الا أن واحدا منهم سبب له من المتاعب أكثر مما هو أهل له •• فقد كان أبوه فقيراً لا يقوى على دفع نفقاته الا انه رأى في « جياكومو » وذلك اسم الصبي نموذجا نافعا ، ومن ثم فقد قبله وزوده بحاجته من الملابس ، وكان « ليوناردو » يقيد بدقة تكاليف هذا العمل وبالطبع لم يقدم فاتورة الى أحد ، ولكنها كانت طبيعته أن يسجل كل شيء •

كان « جياكومو » دائم اقتراف السرقة وكان مصدر ازعاج لبقية الصبية الذين يدربهم « ليوناردو » ، حتى أصبح مشهورا بينهم من كثرة سرقاته ، وبرغم ذلك فقد مكث الصبي في الرسم سنوات ، حتى صار رجلا يخدم في المرسم كخادم وكصبي يتدرب ـ ويقضي الحوائج سواء بسواء • وطيلة هذه المدة لم يكف عن السرقة ولا عن استجداء الرداء ، وكان « ليوناردو » طيلة هذه السنوات دائم الشكوى منه الا أنه كان يعطيه ما يحتاجه ولم يطرده أبدا •

كانت تلك الأيام حافلة بالعمل لرسام القصر • وكان « لوديفيكو » اذ ذاك يعد العدة لزواجه من « باتريس داست » التي كانت تعيش في « بافيا » ، وطبيعي أن يلقى على عاتق « ليوناردو » مهام اعداد الحفل بما يناسبه من أفكار جديدة وأزياء براقة •

وصلت « باتريس » في يناير عام ١٤٩١ وتكريما لقدومها أصدر « لوديفيكو » أمرا الى أصحاب حوانيت السلاح في الشوارع التي يخترقها

الموكب أن يعلقوا خارج حوانيتهم وعلى أبوابها نماذج من الأسلحة ومن الدروع ولباس الحرب • فكان موكب الأميرة يمر في طريق عـريض تحفه جيـاد مطهمـة امتطى صـهواتها أشراف في دروع فارغة يلوحون بأسلحتهم في الهـواء فقـد كانت هـذه الجياد من الدمى المتلألئة ، وكان أعظم مهرجانات الزواج حفلة تنكرية من تصميم « ليوناردو » •

كانت « باتريس » في أول الأمر غير سعيدة بزواجها فقـد كانت في الخامسة عشرة من عمرها مغـرمة بالتسـلية لتقطع بها الوقت ، ومن ثم حصلت على شاعر للقصر وبأمرها كتب عددا من القطع الدرامية الصغيرة ما بين رواية وتمثيلية وغير ذلك • وانتظر الجميع أن يقوم « ليوناردو » ببعض الحيل والمفاجآت •

ووجد هو نفسه يعمل شيئا جديدا فقد غدا أحد رواة القصص في القلعة ينفق الأمسيات يروى خرافات صغيرة ، تعب كثيرا في الحصول عليها ، فقد وجد كثيرا من هذه القصص ذات الهدف والمغزى في الكتب العتيقة التى كان يغرم بها ، ثم لفقها وأخذ يرويها لرجال البلاط وكانت هذه الخرافات الصغيرة تتسم بالبساطة وبالهدف والمغزى •

كانت الأمسيات التى أنفقها هـــذا الرجل الذكى مع هؤلاء النـاس فارغي العقول من بلاط « سفورزا » تبدو كادارة مدرسة حضانة ، الا أن « ليوناردو » كان يقوم بواجبه في التسلية بجد يماثل جده في بقية الأعمال التى يقوم بها • لم يكن أنيق الثياب • ولم يكن تملقه للدوقة « باتريس » الا أمرا مهينا ولكنه كان يفعله لأن ذلك ينبغى أن يفعله •

لم تترك الألعاب ورواية القصص فراغا فسيحا « لليوناردو » ومع ذلك فقد وجد وقتا ينفقه في عمل الحصان البرونزى الضخم ، كان بطيئا في شأن التمثال بالطبع ، الا أن « ليوناردو » كان بطيئا دائما •

ان صنع تمثال من المعدن يحتاج الى كثير من العمل ، ففي البـداية

عليك أن تقيم نموذجا للتمثال من مادة لينة ناعمــة كالطين مثــلا ، وكان « ليوناردو » يستعمل الطين لصنع نماذجه ، وقد بدأ يصنع نموذجا صغيرا عرضه على « لوديفيكو » ليحصل على موافقته • ثم شرع في اقامة التمثال الضخم من الطين ووضع التمثال وهو لا يزال من الطين فى ساحة القلعة ليرى الناس أى نصب تذكارى سيكون هذا التمثال عندما يتم العمــل فيه • وكانت أمامه أشق أجزاء التمثال وهى عملية الصب فى القالب ، كان لزاما عليه أن يغطى التمثال بأكمله بنوع من البياض كطبقة سطحية وأن يدع هذه الطبقة لتتجمد ثم يزيل الطين الأصلى بعناية حتى تكون المساحة الفارغة فى الداخل هى نفس المقابل لشكل التمثال ، ثم تملأ هذه القوقعة من فتحة فيها بمئات الأرطال من البرونز المصهور •

لك أن تتخيل كم يكون هــذا العمل شاقا وصعبا بالنسبة لتمثــال كبير • فانه بعد أن يتجمد البرونز ، عليه أن يزيل الغطاء فاذا سار كل شيء على مايرام حصل على تمثاله البرونزى ، صورة طبق الأصل لما صنع، أما اذا لم يسر كل شيء على ما يرام فان كل شيء لا بد أن يتحطم وأن يبدأ العمل من جديد •

كان « لوديفيكو » فخورا بالتمثال الذى صنع من الطين • وعلى نحو ما أراد تم اعداد التمثال فى الوقت الذى رتب فيه زواج ابنــة أخته من « ماكسميليان » الأول الأمير الألمانى الذى أصبح فيما بعد الامبراطور الرومانى المقدس • وقد منح « لوديفيكو » ابنة أخيه هذه «دوطة» ضخمة من المال ، لأنه أراد أن يكون « ماكسميليان » هذا حليفا له فى العمــل الذى كان بسبيل الشروع فيــه ألا وهــو الاستيلاء على عرش « جيــان جاليزو » •

منذ اقترن « لوديفيكو » من « باتريس » وأصبح أكثر لهفة على العرش • كانت « ايزابيلا أف أرجــون » موضع غيرة دائمــة لباتريس التى كانت تقول انها لن تعرف السعادة ما لم تحل وزوجها محل الزوجين

الشابين • من أجل ذلك منح (لوديفيكو) ابنة أخيه مبلغا ضخما من المهر كان له كل ألوان الجاذبية والاغراء •• ومن بين عجائب الفرح ومن أكثرها تأثيرا فى النفس ذلك الجواد العملاق • على صهوته مارد يطل على البشر الصغار الذين جاءوا ينظرون اليه •

وكل من زار ميلان لحضور احتفالات الزواج عاد الى بلده بخبر الحصان العظيم وصار اسم « ليوناردو دافينشى » أخيرا على كل لسان على نحو ما كان يعرف صاحبه دائما أنه هكذا ينبغى أن يكون •



العشاء الأخير

ازداد تصميم « لوديفيكو » على أخذ العرش من ابن أخته ، فطلب من ملك فرنسا معاونته • وكان هذا الملك تشارلس الثامن شابا رومانتيكيا أحمق امتلأت رأسه برؤى عن المجد • وكانت للملك الفرنسى مطامع غامضة فى عرش نابولى الذى يجلس عليه والد « ايزابيلا » « الفونسو أوف ارجون » بدعوى أن أمه تمت بصلة لهذا العرش • واذا قدر «لتشارلس» الثامن أن يتخلص من «الفونسو» فانه لن يصعب على « لوديفيكو » أن يطرد « ايزابيلا » و « جيان جاليزو » •

بعث « لوديفيكو » خطابا الى الملك « تشارلس » الثامن يشجعه على التفكير فى نفسه باعتباره « جنرالا » عظيما ومحاربا مقدسا • كان تشارلس رجلا دينيا وكان مخططه أن يضع يده على نابولى ويجعلها قاعدة لشن هجومه على « القسطنطينية » وارجاعها الى حوزة المسيحية •

فى عام ١٤٩٤ عبر الملك الفرنسى جبال الألب على رأس جيش جرار لم تشهد ايطاليا مثله من قبل ، وكان بامكان « ليوناردو » أن تأخذه الدهشة بملابس الملك الرسمية الأنيقة وأسلحة الجنود الدقيقة الصنع • واجتاح الملك « تشارلس » مملكة « سيفورزا » لا يعوقه شىء فى طريقه الى أسفل حذاء ايطاليا ، ويلتقى فى الطريق بحليفه « لوديفيكو » وزوجته « باتريس » بل انه التقى أيضا « بايزابيلا » نفسها فى جانب مخدع زوجها الذى سقط مريضا فجأة • كانت «ايزابيلا» تدرك أن أباها الذى لم يكن فارسا ولا رجل حرب الى حد كبير لن يقوى على الوقوف فى وجه الفرنسيين ، ومن ثم أخذت تتضرع الى « تشارلس » أن يدع

عائلتها فى سلام وأن يكف عن الغزو ، ولكن « تشارلس » لم يكن لشىء أن يثنيه عن عزمه فى بلوغ مطمعه واستمر فى زحفه الظافر حتى استسلمت نابولى للفرنسيين دون اطلاق رصاصة واحدة •

لاحق النحس «ايزابيلا» فتوفى زوجها « جيان جاليزو » وتركها هى وطفليها تحت رحمة « لوديفيكو » وقد جلبت وفاة «جيان» الراحة الى « لوديفيكو » حتى أن الجميع كانوا متأكدين من أن الدوق الشاب لا بد أن أعطى السم • ولكن ليس هناك دليل ، ولا يعلم أحد على وجه التأكيد الى الآن حقيقة هذا الأمر • فقد كانت الأمراض فى تلك الأيام كالتيفود والملاريا تصيب المرء فجأة اثر افراطه فى الأكل أو اقامته فى بلد يغشاه البعوض • واذا لم يكن لدى الناس تفسير ما فقد كان القاء اللوم فى كل وفاة سريعة يقع على السم • وسواء كان « لوديفيكو » قد ساعد على قتل ابن أخته أو لم يفعل فانه لم يضيع وقتا وأبدى مظاهر الحزن والحداد ، وعلى أساس القاعدة فى اختيار ولى العهد كان الأمر يقضى بأن يتبع ابن جيان أباه على العرش باعتباره الدوق القادم ، الا أن «لوديفيكو» كان قد سئم منصب الوصى الذى قام به طويلا ، وأراد فى هذه المرة أن يعمل لحسابه ولنفسه ، فأغرى أشراف المدينة بغض الطرف عن الصبى الصغير وأعلن نفسه دوق « ميلان » وغمرت السعادة « باتريس » •

لم يضايق هذا العنف وذلك التغيير « ليوناردو » واستمر فى تجاربه وفى رسمه • ولكنه وجد نفسه مزدحما بالعمل فجأة أكثر من المعتاد فقد بدأ « لوديفيكو » فى عملية هدم وانشاء جديدة ، فأرسل ليوناردو الى مقره الريفى ليعمل هناك • وفى هذه الفترة امتلأت مذكرات « ليوناردو » بأفكاره ودراساته فى موضوع الجاذبية • واذا به ينتهى الى قانونه فى الجاذبية «كلما زاد انتقال القوة من عجلة الى عجلة ، ومن رافع الى رافع، ومن عمود الى عمود زادت قوتها وبطؤ عملها » •

من هذه المشكلة انتقل الى « الهيدروليكيات » • لم يكن بامكانه أن

يكتشف تماما كيف يتوزع الضغط على سطح الماء ، ولكنه لاحظ أن ضغط الماء يؤثر فى المضخة على قوة الماء المندفع الى الخارج بنسبة ثابتة ، وبدأ يكتب رسالته فى حركة الماء وقياسه • ثم تقدم فى أفكاره بتحققه من أن هناك ارتباطا بين سلوك الماء وسلوك الهواء ، فعلى نحو ما ينتج الحجر الملقى فى الماء من دوائر مختلفة متعاقبة ، كذلك ينتشر الصوت فى دوائر متشابهة خلال الهواء • ونحن نعرف اليوم هذه الحقيقة ولكن عندما بدأ « ليوناردو » فى الملاحظة والتفكير لم يكن واحد من الفلاسفة أو العلماء قد بلغ هذا الحد الذى بلغه « ليوناردو » • واخترع أيضا آلات لقياس الضغط والتيارات فى الأنهار ليبحث أثرها على شواطىء الأنهار •

هذه الفترة الوادعة الآمنة ما كانت لتستمر ، فكانت آثار الخداع تتراكم فوق رأس « لوديفيكو » • ذلك أن « لويس أوف أورليانز » وهو النبيل الفرنسى ووريث عمه تشارلس الثامن كانت له مطامع فى ميلان على نحو ما كان لعمه فى نابولى ، وقد بدأ يلح فى مطلبه مهددا باحضار جيش فرنسى آخر الى ايطاليا • قرر « لوديفيكو » أنه لا يمالىء الفرنسيين وأنه لا يريد أن يظل تشارلس فى نابولى وكان لا يزال ينشر نفوذه هناك •

شرع « لوديفيكو » فى العمل لتنظيم حلفاء أقوياء له • البابا و « ماكسميليان » الامبراطور الرومانى المقدس ، وملك أسبانيا ودوق فينسيا ، أعلن هؤلاء جميعا الحرب على تشارلس الثامن • وترنح الملك المسكين تحت صدمة هذا التحالف فعزل هو ورجاله وأبعدوا عن الوطن ، الا أنه استطاع العودة الى فرنسا ولم يمض عليه خارجها أكثر من عام ، ولكنه بعد أن فقد معظم جيشه وانتصاراته ومكاسبه ، لقد كانت حملة باهظة التكاليف •

وقد كانت باهظة التكاليف أيضا بالنسبة « للوديفيكو » الذى رشى الحلفاء للانضمام اليه ، وبرغم هزيمة « تشارلس الثامن » فان « لويس

أوف أورليانز » ظل يهـدد بغزو « ميـلان » وكان على « لوديفيكو » أن يعد جيشه ويزوده بالطعام والكساء والمعدات الحربية وكان هذا يحتـاج الى كثير من المال فعمد الى فرض الضرائب على أهل ميلان وظل يفرض الضرائب حتى علت الشكوى من الناس وأصبح يخشى نشوب الثورة ، لقد شق « لوديفيكو » طريقه الى هدفه ، وأصبح أقوى أمير فى ايطاليا • الا أن طـريقه يكتنفه كثير من الخـوف ، وقد غمـرت متاعبه أهل بيته أيضا وسرعان ما وجد « ليوناردو » نفسه قلقا برما بأمر هذه الحرب التى كان الجواد البرنزى أول ضحاياها ، فلم يستطع «لوديفيكو» أن يوفر كل ذلك البرنز للتمثال وكان معدنا عـزيزا فى ذلك الوقت • وذهبت المائة والخمسـون ألف رطل من البرنز التى سـبق تخصيصها الى صانع المدافع لاستعمالها فى الأسلحة •

كانت صفقة كبرى «لليوناردو» ولكن لم يكن فى مقدوره أن يفعل شـيئا حيالها • وفى نفس الوقت تقريبا توقف دفـع راتبه ، لم يكن « ليوناردو » فى الواقع يصرف راتبه بانتظام ، الا أنه حتى ذلك الوقت كان يتلقى نقوده مرة كل حين •

توقف « لوديفيكو » عن دفع مرتبات موظفيه ، وتوقع أن يستمروا برغم ذلك فى العمل من أجل خاطره ، وظل « ليوناردو » فى القلعة يقوم بما ينبغى عليه عمله من تزيين الحجرات ورسم الحوائط وعمل الأفرسك• ظل « ليوناردو » يفعل هذا أملا فى أن يعطيه أمير خزائن « لوديفيكو » بعض المال المتأخر له • حتى لم يعد لديه ما يشترى به طعامه بعد أن ترك أمر الكساء جانبا ، وأخيرا وبعد أن سأل « لوديفيكو » صراحة ولم يصل الى حل ترك « ليوناردو » العمل •

وانه من الغريب حقا أن يثير هذا العمل دهشة الجميع ، فقد أخبر سكرتير الدوق سيده فى خطـاب له يقـول فيه « ان الرسـام الذى زين حجراتنا بالرسوم أثار اليوم ضجة ثم غادر المكان على اثرها » •

عاد « ليوناردو » يعتمد على نفسه • وأحس بكتلة من الأعداء تحيط به من كل جانب ، ففي محيط الرسم كان هناك كثير من الغيرة والوشاية ووفرة من الناس ممن كانوا يحقدون عليه مركزه الآمن في البلاط • وقد أصبح مما يثلج صدورهم نشر الشائعات الحاقدة حوله ، أصر « ليوناردو » أن يقيم أوده عن طريق الاختراعات التي تتبادر أفكارها الى ذهنه • كان يأمل كثيرا في صنع آلة سن الابرة ، وقدر ما تدره عليه اذا أدارها بنفسه نظير مبلغ معين لكل ابرة يسنها • وعلى نحو ماكان يحدث دائما في شأن هذه التقديرات قدر «ليوناردو» ــ دون أن يحكم التقدير ــ أنه سيحصل على دخل مربح عن طريق هذا العمل الا أن هذه التقديرات كانت على الورق ، وبقدر ما نعرف لم تصنع الآلة أبدا •

اخترع ليوناردو عجلة نسيج ، وبعد مضى ثلاثين عاما توصل بعض الناس الى نفس الاختراع تقريبا وصنعوه فعلا ، وكانت هناك آلة في عجلة ليوناردو لم يتم اختراعها الا بعد مائة وخمسين عاما في انجلترا • وكتب « ليوناردو » في مذكراته ما يحلم به من تحسينات كثيرة في صناعة النسيج ، وهي وان كانت لم تخرج الى حيز التنفيذ ، الا أننا اليوم نستعمل أشياء قريبة الشبه بها كثيرا •

كانت الصناعتان المزدهرتان في « ميلان » واللتان تضفيان الحياة عليها وتحركانها هما صناعة النسيج وصناعة الحديد• وقد راعت «ليوناردو» مصانع الحديد واجتذبت أنظاره ، وطالما دفعت فكره الى الطرق التي يمكن بها تحسين العمل وتطويره في هذه المصانع ، فاخترع الماكينات الدوارة التي تصنع صفائح العلب والشرائح الرقيقة من الحديد • كما اخترع آلات أخرى لصناعة البنادق • وقام أيضا بتحسينات عدة مختلفة لما كان شائعا في أيامه من آلات • أخذ « ليوناردو » في أثناء هذه الفترة يلاحظ تأثير الاحتكاك • ثم وضع قواعد في الطبيعة في هذا الصدد فقد لاحظ أن الزيت والشحم يقللان من مقاومة الاحتكاك • وعندما توصل الى حد

التفكير في البلى الدائر « رمان بلى » نراه يكتب فيقول « ان هذه الأعجوبة تعطى الحركة الدائرية استمرارا يبدو مدهشا ومعجزا .. انها عجائب الفن الميكانيكى •

كان كل شيء يبدو مثيرا ولكن لم يكن شيء من هذا يدر عليه ربحا أو يقيم له أودا • وكان « لوديفيكو » يسعى في الحصول على فنان يحل محل «ليوناردو» ولكن الفنانين جميعا قد سمعوا عن ظروف العمل الشاق عند رجل لا يدفع لهم أجراء وكان مشاهير الفنانين يعرضون عن «ميلان»• كان الأمر يقضى بأن يرحل « ليوناردو » ليجرب حظه في مدينة أخرى ما دام لا يجد صدرا رحبا في « ميلان » الا أنه كانت تنقصه الشجاعة في مثل هذه الأحوال • فقد كان لا ينزع الى التغيير ما لم تجبره الظروف على ذلك • فعندما رحل من « فلورنسا » كان يشعر أنه قد أكره على مغادرتها اذ لم يقدره شخص هناك ، ولأن « لورنزو » لم يمنحه مركزاً لائقا •أما في « ميلان » فقد كان معترفا به ، وكان محل تقدير وكان رسام البلاط لسنين طويلة ، وهو قد وجد على الأقل ما يقيم أوده وان كان قد غضب من « لوديفيكو » فهو لم يقطع صلته به كلية • وقد دعته حاجته ومعرفته لحاجة « لوديفيكو » أن يتناول من الطعام أكثره تواضعا ، بعد أن كان الرجل الذى ينبغى عليه أن يخرج • نراه اليوم الرجل الذى يطلب استعادة مكانته ، فيكتب للدوق يذكره بعمله ويقترح عليه أن يعاود التجربة • ويقبل « لوديفيكو » عودة « ليوناردو » ويكلفه بمهمة تعوضه عن مهمة الحصان البرونزى ، الذى صرف عنه النظر ، كانت المهمة الجديدة رسم لوحة على حائط كبير تمثل العشاء الأخير •

وهذه اللوحة تعد الآن أشهر ما رسم « ليوناردو » ، فنرى طلبة الرسم يدرسونها في تاريخ مبكر من حياتهم الدراسية ، ويدرسون كيف رسمها مباشرة على الحائط ؟ وأنها مع الزمن قد أصابها التلف والبلى اذ

تصدع البناء وتهدم الطلاء . ومما لا شك فيه أن هذه اللوحة كانت من أكثر أعمال « ليوناردو » التى أخذت كثيرا من الجهد والاعداد الدقيق.

ان مذكرات « ليوناردو » تزخر بالكثير من «الاسكتشات» التمهيدية، وتذكر فى سطورها كتابات أصدقائه حول المشاكل التى واجهها «ليوناردو» فى اعداد هذه اللوحة . فقد كانت دوائر الفن جميعا تترقب ما سيضعه هذا الفنان . ومرة أخرى أحس « لوديفيكو » و « باتريس » بالفخر والاعتزاز بفنانهما العبقرى .

رسمت هذه اللوحة فى دير الكنيسة المحببة الى نفس « لوديفيكو » والتى تقع قرب القلعة وتدعى « سانت ماريا ديل جراز » وأراد «لوديفيكو» أن ترسم اللوحة على جانب من جوانب غرفة طعام الرهبان وكتب « ليوناردو » فى مذكراته عن الطرق التى قصد أن يميز بها الأنبياء « ان واحدا كان يشرب وقد وضع قدحه وأدار وجهه نحو من يكلمه . وآخر يفرك أصابع يديه وقد تعقد حاجباه مستديرا الى جاره فى حين أن هذا الجار يفرك يديه ويكشف عن راحتيه رافعا أكتافه الى أذنيه فاغرا فاه فى دهشة ، بينما يهمس آخر فى أذن جاره الذى استدار اليه مصغيا كل الاصغاء وقد أمسك سكينا باحدى يديه وفى اليد الأخرى قطعة خبز قطعتها السكين الى منتصفها .. ونبى آخر استدار ليقلب كوبا بيده على المنضدة .. وهكذا استمر الرسم يتناول الأنبياء » .

استحوذ هذا العمل على « ليوناردو » فانغمس فيه بروحه وعقله ، وأقام فى حجرة صغيرة حتى يركز ذهنه ويجمع شتات نفسه ، فاذا احتواه الليل أخذ يفكر فيما أنجز من عمل فى نهاره ، فاذا أصبح الصباح عاد يفكر فيه مرة ثانية وكان اذا ملأ عليه العمل حياته نسى أن يأكل وظل يعمل بأقصى سرعة أياما لا يتوقف ، ثم اذا كف عن الرسم خرج الى مكان بعيد عن منتدى الرهبان ، يجول فى الريف وقد غمره النور ، وهو فى كل هذا لا يكف عن التفكير فى الصورة .

كان يعنى كل العناية بأن يجد نموذجا لكل وجه يريده • وذات يوم شكاه رئيس الرهبان ولعله قد ساءه ما سمعه عن بطء « ليوناردو » • شكاه الى « لوديفيكو » قائلا انه لا يظن أن اللوحة يجرى العمل فيها بالسرعة الكافية «فليوناردو» لم يرسم بعد « يهوذا » ولا «المسيح» الى الآن، ولمرة واحدة فى حياته كان ليوناردو محقا فى الشعور بكذب هذا الاتهام عندما سمع به فهو فى الواقع قد أسرع بالعمل فى العشاء الأخير بالمقارنة الى سرعته فى العمل العادى وعلى ذلك أجاب بقوله : « ماذا يفهم الرهبان عن الرسم ؟ هل يستطيعون أن يرسموا • حقا اننى لم أقم بالدير منذ وقت طويل الا أنه لم يمض يوم دون أن أخصص منه ساعتين على الأقل للعمل فى اللوحة » •

وسأله « لوديفيكو » أن يشرح السبب فأجاب «ليوناردو» ان سعادتكم تعرفون أن « يهوذا » مفقود ولا يمكننى أن أجد نموذجا مناسبا لهذه الشخصية الضائعة • اننى أذهب يوميا الى أوكار المجرمين منذ أكثر من عام حيث يعيش حثالة الناس ، ومع ذلك لم أقع على النموذج الذى أبغيه•• واذا لم أجده فسوف أتخذ رأس رئيس الرهبان نموذجا ، فانها تؤدى الغرض على أحسن وجه ، وما منعنى عن فعل ذلك الا مجرد الاعتبار لشعوره • وما أن سمع « لوديفيكو » ذلك حتى انفجر ضاحكا •

أثارت لوحة العشاء الأخير ، مع الوقت ، من الضجة حولها ما أثار من قبل تمثال « فرانسسكو » وهو يمتطى صهوة جواده • فقد عاد الحديث عن تقريظ « ليوناردو » وعن تقليد أسلوبه فى الفن ، ودعاه الكثيرون الى القاء محاضرات عن منهجه وأساليبه الفنية كما توافد الطلبة وتدافعوا للالتحاق بمرسمه • ثم قرر « ليوناردو » أن يضع كتابا يضمنه كل نظرياته ـ كيف ينبغى أن يشعر الرسام •• ؟ وكيف ينبغى أن يشعر الناس حيال اللوحات •• ؟ ورأيه المقارن بين الرسم والنحت•• وهكذا•• وقد وضع لكتابه عنوان « رسالة فى الرسم » •

توفيت زوجه « لوديفيكو » في هذه الأثناء • فقد كانت « باتريس فتاة شقية تواقة الى اللذة والنزق • فهى تركب الخيل فى سرعة وتهور ابان الصيد ، أو هي ترقص ساعات متواصلة • وفى ذلك الشتاء أنزلت بنفسها اصابة مرضت من جرائها ثم ماتت ، تمكن الحزن من «لوديفيكو» زمنا وطلب من « ليوناردو » أن يصمم غرفة حزينة مجللة بالسواد تذكارا لها ، وقبل أن يفرغ « ليوناردو » من الحجرة الحزينة كان « لوديفيكو» قد برىء من حزنه فصرف رسام بلاطه الى تزيين غرفة الطعام المجاورة • لم يمض وقت طويل حتى شرع « لوديفيكو » يعمل للزواج مرة ثانية ، ولكن تشارلس الثامن أراد أن ينتقم لنفسه فأغرى الفتاة التى كانت عين « لوديفيكو » عليها كي ترفض يده • وفى عام ١٤٩٨ مات تشارلس الثامن فجزع « لوديفيكو » من وفاة خصمه أكثر مما جزع من رفض الفتاة خطبته • فقد أصبح « لويس أوف أورليانز » ملكا على فرنسا ولا بد أن يعد العدة لغزو « ميلان » • داخل الخوف قلب « لوديفيكو » وأخذ يذهب هنا وهناك علّه يؤلب أو يستميل حلفاء ، للوقوف بجانبه والدفاع عن مدينته ، ولكن حياته التى أمضاها مصبوغة بطابع الخداع جعلته يتبين أنه ليس له أصدقاء ، وأضحى الجلى الشائع من أمره أنه فى خطر محدق جسيم ، حتى أولئك الذين كانوا يكيلون له المديح والتملق أخذوا يتولون عنه وينصرفون •

أخذ « لوديفيكو » يفكر فى أخطائه بصورة أكثر جدية عما كان يفعل فى فترة الحداد على «باتريس» ، ومن بين ماكان يؤرق ضميره معاملته غير الكريمة « لليوناردو » ، فأسرع يعوضه عما فات بمنحه ضيعة بها كرمة عنب يمكنه أن يبنى فيها بيتا ويعيش قريبا منه على حد قوله • وقد تبدو الهدية غريبة فى الوقت الذى يمكن أن يحل بالأرض الأجنبى الفاتح فيطرد الدوق والرسام معا من البلاد كلها • وبرغم ذلك فقد فرح « ليوناردو » بالهدية لأنه كان يفكر فى مستقبله فى ذلك الوقت وقد شملت

مشاغله وأبحاثه الفنية كل وقته ثم أن هذه كانت أول أرض يملكها « ليوناردو » في حياته . وما لبث أن غرق الى أذنيه في دراسة الكروم والنبيذ وبدأ يخطط منزله الجديد .

مضت شهور أربعة أو خمسة ، وبالتجديد في يوليه عام ١٤٩٩ سار الفرنسيون مرة أخرى الى ايطاليا بقيادة لويس . وبلغت الأنباء «ميلان» بأنهم وصلوا « لمباردي » ، وحتى ذلك الوقت لم يعبأ « ليوناردو » أو يصيبه الضيق فما هو « لوديفيكو » الحاكم ولا هو قطب من أعيان ميلان . وظل يمارس أعماله التى يمارسها . فهو يعد حماما جديدا « لايزابيلا أف أراجون » ويدبر فى الحمام الجديد درجة حرارة الماء المناسبة بخلط الماء الساخن بالبارد . والى جانب ذلك ظل يعمل فى رسالته الجديدة « الحركة والتوازن » .

وفي اليوم الخامس من شهر أغسطس فتحت المدينة أبوابها للفرنسيين، وقد أدرك « لوديفيكو » أن الحاكم الظالم الذى كان فى حياته مخادعا جائرا لا يمكنه الاعتماد على أحد فى ساعة الشدة . لم يكن هناك دفاع والقلعة التى كان ينبغى لها أن تصمد فى وجه الحصار شهورا سقطت فى يد الفرنسيين بفضل خيانة واحد من أقرب أنصار « لوديفيكو » وولى صاحب البشرة السمراء الأدبار هاربا .

كان أسوأ ما جاء به الاحتلال بالنسبة « ليوناردو » هو الرماة « الجاسكونيين » فى الجيش الفرنسى الذين أخذوا يتدربون فى رياضتهم العابثة على رمى حصانه الطينى العظيم مما ساعد الريح والأمطار على تمزيقه اربا ، ولا بد أن قلبه كان يقطر دما وهو يرى هذا المجهود الجبار يذهب أدراج الرياح ، بالرغم من أنه كان قد فقد الأمل منذ وقت طويل فى أن يصبه فى قالبه المعدنى .

لا يمكن أن يكون احساس « ليوناردو » بكراهية الفرنسيين قد

استمر زمنا طويلا ، ذلك أن الملك لويس الثانى عشر قد أعجب بعمله كثيرا • كان لويس قد سمع بطبيعة الحال قبل ذلك عن « ليوناردو » وبعد دخوله الظافر للمدينة قصد الى دير « سانت ماريا ديل جرازى » ليرى لوحة « العشاء الأخير » وسأل اذا كان يمكن بأية طريقة أن تقطع وتنقل الى فرنسا لتزين قصره • ولكن ذلك كان مستحيلا اذ كان الرسم على الحائط ذاتها •

وقد طلب لويس فيما بعد من « ليوناردو » أن يعمل عنده ، وكان عرضا سخيا ، جعل نفس « ليوناردو » الجائعة تحس الشبع ، وملأه ثقة بنفسه فقد بلغ مراده بالرغم من معاملة « لوديفيكو » التى ضنت عليه سنين طويلة •

عاشت « ميلان » بعد الغزو شهورا لا تعرف الاستقرار فقد كان الجنود الفرنسيون الذين احتلوا المدينة على كثير من الفظاظة والغلظة والتغفل أحيانا ، ولم يمض وقت طويل حتى أحس أهل «ميلان» بالأسف لترحيبهم بالغزاة فلم يكن « لوديفيكو » سيئا الى حد السوء الذى لقوه من الفرنسيين ، من هنا عاودهم السرور عندما عاد « لوديفيكو » يحارب من أجل استعادة عرشه • وكان يشق طريقه على أكتاف مرتزقة من سويسرا• وقد عُرف السويسريون بأنهم من خيرة المقاتلين الا أنه بعد استعادة « لوديفيكو » سلطانه اشتراهم الفرنسيون وأخرج « الدوق » مرة ثانية•• وكانت نهايته فى هذه المرة ، فقد وقع فى الأسر وأخذ الى فرنسا حيث أمضى فى السجن عشر سنوات وافته بعدها منيته •

لم تدهم « ليوناردو » هذه الدوامة من الأحداث ، كما أنه لم يقبل عرض لويس بالعمل عنده ، ولعله رأى فيه ضربا من العيش المتغير كل التغير لرجل ألف الهدوء والسكينة ، الا أنه ظل فترة يعمل لحساب مندوب لويس أو ممثله فى « ميلان » •

ولما لم تهدأ الأمور قرر « ليوناردو » أن يرحل الى «مونتوا» لبعض

الوقت • ولم تكن « مونتوا » بعيدة عن « ميلان » وكان يحكمها «فرانسسكو جونزاجا» وزوجته «ايزابيلا ديست» أخت « باتريس » •

كانت «ايزابيلا» مشهورة باهتمامها بالفنون ، وقد طلبت من قبل الى « ليوناردو » مرارا أن يشرفها بالاقامة عندها •• وها هو فى آخر الأمر يقبل الطلب •

رحل «ليوناردو» وبصحبته خادمه الصغير الشرس «جياكومو» والذى كان يطلق عليه اسم «سالاى» أى السيىء وقد تناهى الى مسامعه نبأ أسر «لوديفيكو» • فراح يكتب فى مذكراته : « لقد فقد الدوق دولته وممتلكاته وحريته ، ولم يبلغ بأى من أعماله الى النهاية » •

ومما لا شك فيه أن «ليوناردو» عندما كتب ذلك كان يفكر ويعزى نفسه فهو ان أخفق فى عمل الحصان البرونزى فان غيره من الناس كان أسوأ منه حالا •

حكم الأمير

كانت «ايزابيلا ديست» ، أميرة «مونترا» مشهورة فى حياتها ، وظل ذكرها حيا لا على أساس ما صنعته بنفسها ، انما بفضل من حولها، فهناك من الناس من لا يجيدون الرسم أو التأليف أو تلحين الموسيقى أو عزفها ، ولكنهم برغم ذلك عشاق للفن ، ومن ثم نراهم يحيطون أنفسهم بمن يجيدون هذا الفن أو ذاك اجادة حسنة • وكانت موهبة « ايزابيلا » وهوايتها الخاصة هى جمع هذا الطراز من الناس حولها •

لم تكن مرتبتها عالية جدا فقد كانت أختها «باتريس» كدوقة أعظم منها بكثير ، ولم تكن عظيمة الثراء فقد مر بها وبزوجها « فرانسسكو جونزاجا» وقت عصيب بذلا فيه الكثير من أجل الظهور بالمظهر اللائق بكرامتهما ولقبهما ، ومن ثم فلم يكن فى مقدورها اغراء مشاهير الفنانين بوعود المال والثروة فلم تكن تقوى على الرعاية على مستوى « لورانزو دى روس » أو « لوديفيكو سفورزا » زوج أختها ، ومع ذلك فقد بذلت ما فى وسعها على أحسن وجه لكى تجمع حولها الفن والفنانين • وفى الحقيقة انها فعلت خيرا مما فعل كثير من الرعاة الموسرين ، ذلك انها كانت دائمة الاصرار من أجل تحقيق غرضها •

كانت « ايزابيلا ديست » تفخر بملكيتها لقليل من الصور والتماثيل النادرة كأحسن وأروع ما يمكن أن يقتنى من المال ، برغم أن هذه التحف لا تتعدى الواحدة أو الاثنتين • وكانت تعتقد أنها ملمة بفنون الرسم والنحت والبناء ، ولم يكن يعجزها أن تسترعى نظر ضيوفهاالفنانين الى كيفية التهيؤ لعملهم وأدائه ، وكان معظمهم يتقبل النصح فى رحابة

وسعة صدر • وكانت تشجع الشعراء الناشئين الذين كانوا يصوغون القصائد تمجيدا « لايزابيلا » ويشيدون بروعة أشعارها • كانت ايزابيلا أكثر النبلاء تقديرا لمواهب «ليوناردو» وفخرا بمعرفته ، حتى أنها تعتبره صديقا لا مجرد رسام •

في الوقت الذى عزم فيه «ليوناردو» على شد رحاله الى مونتوا كانت «ايزابيللا» مبتهجة فرحة مؤملة آن تجعله يرسم لها صورتها ، ولم يكن يراودها الشك فى أنها ستحصل على بغيتها من الصور •

كانت « لايزابيلا » حيلة خاصة مع الفنانين فكانت تمنح الفقير منهم مبلغا من المال مقدما فى صورة هدية تعينه على السير بعمله الى الأمام فاذا ما تيقنت أنه أنفقها أخذت تذكره بأنه مدين لها ببعض المال وتظل تذكره فى أدب حتى يعطيها أشد الفنانين اعراضا ما تطلبه وهو ساخط •

رأت المرأة العنيدة أن « ليوناردو » رجلا عنيدا مثلها • انك تستطيع مضايقة « ليوناردو » وتظل تضايقه الى الأبد ولكن اذا حدث أن اجتذب اهتمامه شيء غير الرسم ــ على نحو عادته ــ فانه لن يقوم برسم صورتك ، وقد اكتشفت « ايزابيلا » هذه العادة فى « ليوناردو » •

لم تكن نية « ليوناردو » ألا يكون كريما معها أو أن يسوفها ويماطلها على غير طائل ، بل لعله كان يقصد كل القصد أن يفعل ما تأمر به أول الأمر ، فقد صمم الاسكتش التمهيدى لصورة « ايزابيلا » ، ولعله كان يسعدها أن تنال على الأقل هذا الاسكتش بالرغم من أنه لم يكن مغريا ، أو بالصورة التى ترغبها سيدات ذلك العصر فى رسم صورهن • فقد جعلتها الصورة تبدو رقيقة ــ كما كانت فى الحقيقة ــ ولكنها كانت تبدو فيها كذلك قاسية باردة • وكان زوجها يكره تلك الصورة على نحو ما يكره أزواج هذه الأيام صور زوجاتهم عندما يظنون أنها لا تمثل صاحباتها حق التمثيل •

وذات يوم و « ايزابيلا » فى غفلة وكان ذلك بعد مدة طويلة من هجر « ليوناردو » للمشروع ورحيله الى البندقية تصرف « فرانسسكو » فى اسكتش صورتها ، وبذا لم تحصل « ايزابيلا » البائسة فى النهاية على شيء .. أخذت تكتب الى « ليوناردو » الفينة بعد الفينة تسأله أن يوافيها برسم .. أى رسم .. فى أصغر صورة ، الا أنه لم يدعها تحصل على شيء منه .ويبدو أن « ليوناردو » برغم كل هذا لم يكن فى واقع الأمر يستسيغ « ايزابيلا » .

رحل « ليوناردو » من « مونترا » الى «البندقية» ، المدينة الجميلة التى تقوم فيها القنوات مقام الشوارع فتصل ما بين قصورها الشاهقة . كان هناك دافع لذهاب « ليوناردو » الى هذه المدينة الثرية فضلا عن أنه لم تسبق له رؤية هذا البلد الجميل . كان الدافع هو رغبته الملحة فى أن يصنع شيئا بما يعرف من العلم .

ليس غريبا أن ينظر هذا الرسام الى عمله الفنى على أنه أقل أهمية بالمقارنة الى غيره من الأعمال فقد كان جل اهتمامه بدراسة الطبيعيات والكيمياء والفسيولوجيا ، وهكذا كثير من الناس ، وخاصة أولئك الذين يحاولون دائما البحث عن مكنون شيء ، مثل « ليوناردو » هؤلاء النفر من الناس لا ينالون الشيء الذى يعرفون أنهم يستطيعون عمله جيدا من اهتمامهم ما يناله شيء آخر لم يتقنوا اجادته بعد ، وهذا ما يعلل لنا لماذا لم يكن « ليوناردو » يرسم الا عندما تدفعه الى ذلك الحاجة الى المال ، أو عندما تشغله لوحة مثل العشاء الأخير ـ وهو أمر نادر ـ وتحتاج الى ما تحتاج اليه من التفكير والتخطيط ، فى ذلك الوقت كان العمل الفنى يستحوذ على كل مشاعره ووجوده . وكان من الصعب أن تدفع « بليوناردو » الى لوحة تستحوذ على حياته وكيانه ويفرغ منها على نحو ما فرغ من لوحة العشاء الأخير . وفى البندقية كان « ليوناردو » يريد قبل كل شيء أن يضع بعض نظرياته الميكانيكية موضع التنفيذ .

استــدار القرن وأطل على الدنيـا عام ١٥٠٠ عندما أحس أهــل البندقية أن الخطر التركى محدق بهم ، فقد تقدم الأتراك فى ايطاليا أكثر مما كان أحد يتوقع • وقد عبروا البحر المتوســط وقاتلوا على الأرض الايطالية • لذلك كان الذعر يسـيطر على أهل البندقية • ويقــال ان « ليوناردو » قد وصل هناك ومعه جواب تقديم من النبيل الفرنسى «كونت دى لينى » وكان هذا الكونت يحكم « ميلان » نائبا عن « لويس » وكان « ليوناردو » معتزا بهذه التوصية أكثر مما عداها لأنها كانت تقدمه بوصفه مهندسا حربيا لا مجرد رسام للمناظر المقدسة •

كان أهل البندقية فى حالة عصبية من القلق والتــوتر لدرجة أن القادم الجديد تولى عمله فورا فى مشروعاته الدفاعية ، وقد رأى أن نهر « ايزنزو » يمكن من تلقاء نفسه أن يكون عائقا فى وجه الغزاة ، وكان لهذا الرأى أهميته لدى أهل البندقيــة الذين اعتقــدوا أنه لم تكن لديهم فسحة من الوقت يشيدون فيها القــلاع قبل مقــدم الأتراك ، وكان قول « ليوناردو » ان قليلا من الرجال بمعونة هذا النهر تعادل قوة كبيرة كما وضع « ليوناردو » أيضا تصميما لتصفية ممرات المدينة المائية بالأنفاق عند فيضانها ، وعندما شكا المسئولون بأن هــذا المشروع باهظ النفقات ذكرهم « ليوناردو » بأنهم كثيرا ما أنفقوا أضعاف ذلك فى حروب لا ضرورة لها مع نصف القارة الأوروبية تقريبا ، الامبراطورية ، الكنيسة ، ملك أسبانيا، ملك فرنسا • بعد هذا لم يعد يسمع « ليوناردو » صدى للشكوى • كان قد صنع البنادق ولكن أكثر اعداداته الدفاعية جذبا للانتباه اختراع جديد محوره أن يقوم المرء تحت سفن العدو عندما تقترب من المدينة ويحدث بها ثغرات فى القاع •

كانت فكرة ملابس الغطس قد راودته منذ زمن طويل عن طــريق مراقبة الغطاسين وهم يحملون حقائب الهواء معهم تحت سطح الماء ، وقد أخذ الفكرة الى أبعد من ذلك فاخترع البذلة التى لا يخترقها الماء وكانت

لها نظارة فوق العين تمكن مرتديها من النظر حوله كما كانت لها أنابيب تحمل الهواء من السطح • كذلك فكر « ليوناردو » في اختراعه في تسهيل حركة الغطاس لكي يدافع عن نفسه ضد الأسماك الضارة الخطرة كما فكر في صنع قفازات لها أنسجة بين الأصابع كأقدام البط لتساعد الغطاس على السباحة • انها بالجملة مشروع لجهاز الغطس الذى نراه يعمل فى أيامنا هذه •

قرر « ليوناردو » أن تظل هذه المعلومات سرا فى طى الكتمان وقد تحقق فجأة من أنه يندمج بالفعل فى حرب حقيقة ، ونراه فى مذكراته يحمل سرا مخيفا قد يؤدى الى موت مئات الناس اذا جاء فى طريق الخطأ ، ويبدو أنه لأول مرة بدأ يحس وخزات الضمير ، فحتى ذلك الوقت كانت الآلات التى اخترعها لقتل الناس مجرد تجارب ونظريات ولكنه بدأ الآن يراوده الشك •

برغم ذلك فقد كان كغيره من كثير من العلماء يرى أن مبرر استخدام هذه الأشياء كونهم في جانب الحق ، وأخذ يفكر فى اختراعات أخرى وقد فكر ضمن ما فكر في سفينة تغرق سفينة ، كانت هذه السفينة عبارة عن قطعة صغيرة من الخشب يغطيها الحديد تندفع تحت الماء قريبة من مركب العدو لاغراقها ونستطيع أن نقول انه اختراع للغواصة • وقد احتفظ « ليوناردو » بهذا الاختراع كسر من الأسرار •

ماذا حدث لهذه الاختراعات ؟ لا يزال الجواب غير معروف • ولا يذكر التاريخ أن هذه الأشياء قد استعملت قط ، وكل ما يذكره التاريخ أن البندقية لم يغزها أحد فى ذلك الوقت • ترى هل خاب أمل «ليوناردو» مرة أخرى ؟ أو أنه استراح وقد انزاح عن ضميره وزر أدوات الدمار ؟ •• انه لم يذكر شيئا عن هذا فى مذكراته • وعلى أية حال فقد كان يمكنه بعد ذلك أن يريح باله بأنه اعتبر آخر الأمر مهندسا •

عاد « ليوناردو » الى « فلورنسا » مقره الأول قادما من البندقية وكان ذلك هدفه الذى تأجل بسبب أزمة البندقية . كان الوقت ربيعا فى عام ١٥٠٠ ، وقد مضت ستة عشر عاما منذ ترك المدينة غاضبا .

ان رفاق صباه وزملاء التلمذة ممن كانوا معه كانوا فى شوق لرؤيته وقد أصابه التغير وهو الذى بلغ من العمر اذ ذاك ثمانية وأربعين عاما ، الا أنه كان قوى البنية على غير المألوف ، ويقال انه كان يستطيع أن يثنى قضيبا من الحديد بيديه العاديتين .

لم يكن محنى الظهر وان بدا أنه أكبر سنا كان يلبس نظارة وفى وجهه بعض التجاعيد ، وفقد شعره غزارته ، كما فقد محياه نضارته ، وعلى نحو ما كان يذكر أصدقاؤه كان حسن الهندام أنيق الثياب الا أنه لم يتطرف الى ما يتفق و « الموضة » ففى كتاباته نراه يحتقر المتأنقين من أهل فلورنسا الذين يرتدون ملابس لا بد لهم من حملها كما تحمل السيدات ذيول الفساتين . وبذوق وفكر سليم كان « ليوناردو » يرتدى بذلاته الى ما أسفل الركبة فقط .

كان يطيب لأصدقائه أن يروه ثانية بين ظهرانيهم . ولكن عائلته لم يكن يهمها الأمر بصفة خاصة فقد كان والده «بيرو» فى الخامسة والستين أو ما فوقها ، وكان ذلك عمر العجز والكهولة فى القرن السادس عشر ، وهو بعد وفاة زوجته الثالثة قد تزوج من الرابعة التى أنجبت له خمسة أطفال ثم انه فى هذه السن قد فقد اهتمامه بابنه الأكبر ، حقيقة أنه كان هو و « ليوناردو » على علاقة معقولة من الصداقة الا أنذلك كان بقدر ما ، .. كان أول عمل بدأه « ليوناردو » فى فلورنسا لوحة أخرى ، لوحة ضريح فى أحد الأديرة . انتقل الى الدير فورا ومعه خادمه « سلاى » الا أنه لم يكد يستقر حتى عاودته العادة السيئة عادة الاهتمام بشىء آخر غير الشىء الموكول اليه عمله ، أقول السيئة لأنه ما من شك فى أنه كان

مثيرا بتصرفه هـذا حنق الرهبان وغيظهم ، أولئك الذين عهـدوا اليه بالمهمة •

كان اهتمام « ليوناردو » هذه المرة منصبا فى الهندسة ولا يمكننا أن نأسف لتركيز جهوده على الهندسة أو على أى شىء يجذب اهتمام عقله اللامع ، فما كان عليه الا أن يتخذ ببساطة الطريق الذى يقوده اليه فكره• وفى الواقع كان لدراساته الهندسية أثرها على رسمه • فقد كانت معظم رسومه الجماعية هندسـية • فالتصميم الذى وضـعه للرهبان فى لوحـة « العذراء وسانت آن » التى ما زالت موجودة يمثل مثلثا تاما ، وعنـدما انتهى الرسم التمهيدى اندهش الرهبـان واغتبطوا الى حد أنهم نسـوا شكواهم • وقد بلغ نبأ هذه الأعجوبة الجديدة مسامع « ايزابيلا » فأرسلت رسولا الى « ليوناردو » تذكره بصورتها ، أو اذا ما أخفق فى أى شىء ، يجعله يحقق هذا الطلب فهى تريد أية لوحة من رسمه •

كتب رسول « ايزابيلا » اليها من فلورنسا يقول : ان « ليوناردو » يعيش حياة بعيدةً كل البعد عن الاستقرار ، وأنه ضـاق ذرعا بالرسم ، ومنصرف بكل وقته الى الهندسـة وأنه يوكل أمر رسـومه الى تلاميـذه ومساعديه • وقد وصـل الرسـول الى « ليوناردو » يحمل اليه الحـاح « ايزبيلا » الا أن « ليوناردو » أجابه بأن كل انتاجه فى الوقت الحاضر يذهب الى ملك فرنسا الذى يدين له بالولاء فاذا زاد شىء عن الحاجـة فسوف يكون من نصيب « ايزبيلا » ، ولم يكن هذا الكلام صـدقا فان « ليوناردو » لم يقف نفسه على « لويس الثانى عشر » ، ان غاية الأمر أنه قد احتفظ به فى ذاكرته باعتباره رجلا يمكن الاعتماد عليه يوما ما • وقد قضى هذا العذر غرضه وهو ارجاء « ايزبيلا » •

كان راعيه هـذه المرة غير فرنسى كلية ، فقد وجـد « ليوناردو » نفسـه يعمل فى خـدمة أخس شخصيات النهضـة التى اشتهرت بالشر العنيف هو « سيزار بورجيا » وهو اسبانى ولد فى روما •

نشأ سيزار ليكون « كردينالا » الا أنه كره قيود الحياة التي تفرضها الكنيسة فهجرها بلا عودة ، ومنذ ترك الكنيسة وهو يخطط ويسعى ليكون أثرى أهل ايطاليا وأقواهم ، ملأ الطمع قلب هذا الرجل الى حد أنه لم يعد في قلبه مكان لعاطفة أخرى .

كان معدوم الضمير لا يكن حبا صادقا لأحد وان كان في مقدوره أن يبدو رقيق الحاشية لطيف المعاشرة عندما يريد . وقد نجح في جذب أنظار بعض الناس الطيبين اليه .

كان « سيزار » قد قضى وقتا في بلاط لويس الثاني عشر ، وتزوج هناك من أميرة فرنسية ، وكان الملك لويس شغوفا به وكانت تحبه امرأة «سيزار» وكان الظن في روما شديدا بأن «سيزار» قد قتل أخاه الأكبر بدافع الكراهية والغيرة ، وكان أغلب الظن أنه لا يتورع عن قتل الآخرين اذا هم وقفوا في طريق تحقيق أدنى رغباته .

وبالاختصار انه حيث كانت الأنانية والعنف شيئا مألوفا فان اسم « سيزار بورجيا " كان بالغ السوء الى حد أنه عندما قتل دفن حيث سقط في أرض دنسة . ومنذ ذلك الحين وأهل البلاد يتسمون بأغلظ الايمان أن شبحه يغشى الناحية . وظل مدفونا في مكانه حتى عام ١٩٥٤ حيث أخرجت عظامه في أثناء احدى عمليات انشاءات المباني ، ودفن في كنيسة مجاورة ، بعد أن ظل الناس يذكرون « بورجيا » ويخافونه أكثر من أربعة قرون .

كان هذا المخلوق الغريب أنيق الملبس ، أخاذ المظهر مسرفا في الأناقة والهندام ، وقد جذب « فلورنسيا » يدعى « ميكافيلي » الى حد أن هذا الأخير وضع فيه « كتابا » أو « رسالة » يصف فيها فكرته عن الحاكم الكامل وما ينبغي أن يكون عليه ، وكان نموذجه لهذا الكمال « سيزار » القاتل .

ولا بد أن «بورجيا» كان على جانب كبير من الوسامة ورقة الحاشية، حتى انه استطاع أن يجذب اليه ملك فرنسا وسكرتيره وآخرين لا عد لهم ولا حصر ، ولأنه جذب أيضا « ليوناردو » الذى ما كان يعبأ بأحد فى العادة ، أراد « سيزار » أن يكون « ليوناردو » عضوا فى بلاطه لا لأنه كان مغرما بالرسم بل لأنه رأى أن آخرين يهتمون بالفنان ويعجبون به •
وقد أغرى « ليوناردو » بأن سأله أن يكون مهندسه الحربى والمعمارى فقبل العرض مرحبا ، لأنه فضل هذا العمل كثيرا على أن يظل رسام لوحات لأضرحة الرهبان •

عندما التحق « ليوناردو » بخدمة « سيزار » فى عام ١٥٠٢ كان « سيزار » قد شرع فى شن عدة غزوات تهدف الى اقتطاع امارة ليجلس على عرشها • وقد فتح روما بقوة السلاح كما فتح مدينة « بيومبينو » على الساحل الغربى لايطاليا ، وكانت هذه المدينة تحيطها المستنقعات من كل جانب •

سافر « ليوناردو » الى « بيومبينو » ليعمل هناك بتوجيه من «سيزار» فى تصفية المستنقعات • ولم يكن معروفا وقت ذاك أن البعوض يحمل ميكروبات الملاريا ، ولكنه كان من الملحوظ انتشار الحميات حول الأراضى المبللة •

قصد « ليوناردو » الى مدينة « اريزو » بتوجيه من « سيزار » وكان سيزار قد استأجر لقيادة جنده بها ضابطا مرتزقا مشهورا يدعى « فيتيللوزو فيتيلى » وقد هاجمت « اريزو » بقيادة الضابط المرتزق مدينة فلورنسا لحساب « سيزار » وعلى الرغم من أن هذه الحرب كانت ضد مدينة « ليوناردو » الا أنه لم يبخل على « سيزار » بمخترعاته ، لأن الأسرة الحاكمة فى « فلورنسا » لم تكن تلك التى تلقى فى ظلها تدريبه فقد ذهبت أسرة آل « مديتشى » من زمن بعيد • وكان معظم الايطاليين يدينون

لأسرة حاكمة ، أما فكرة الولاء لأمة أو دولة فلم تكن قد دخلت عقولهم بعد •

عندما هـدد « سيزار » وضابطه المرتزق مدينـة « فلورنسا » من أطرافها بعث دوق «ميلان» وملك فرنسا فرقا من الجنود تساند الفلورنسيين، •• عندئذ وجه « سـيزار » وجهه شطر غزو جديد •• شطر دوقيـة « أوربينو » •

ذهب « ليوناردو » الى « أوربينو » أيضا وهناك درس فن العمارة ولم يذكر « ليـوناردو » فى مذكراته شيئا عن مدى نجاح « سـيزار » فى مغامراته لتحقيق أطماعه • بل أنه قل أن يذكر شيئا حول هذا الموضوع ولا حتى بصفته مجرد مشاهد • فقد كان يكفيه أن يجول على نحو ما كان يفعل ، يؤدى ما يطلب منه ، راسما اسكتشاته مدونا ملاحظاته •

وبينما كانت رحى هذه الحرب دائرة كانت الهمسات تجوب أرجاء ايطاليا بأن نهاية « سيزار » تقترب ، فقد عمت الشكوى من الجميع وكان ملك فرنسا فى طريقه الى « ميلان » ليرى ما يجـرى فى ايطاليا ، فمن المؤكد أنه لن يدع هذا الكلب المجنون من أبناء البلاد يعيث فى الأرض فسادا على هذا النحو •

لم يدر فى بال أحد أن يثير « سيزار » جشع الملك بذكائه فما أن جمعته الظروف « بلويس » حتى تحـدث اليـه عن حق البيت المالك الفرنسى فى عرش نابولى وكان اصرار « لويس » على هذا المطلب شديدا وقد كان « تشارلس الثامن » قد خدع بتخليه عنها بعد أن كسـبها أيام « لوديفيكو » • أسرع « سيزار » فى أواخر صيف عام ١٥٠٢ الى ميلان لمقابلة « لويس » ، وهناك خاب ظن المتطلعين بشوق الى نتيجة هـذه المقابلة عندما وجدوا أن قوة جاذبية « بورجيا » مازالت تخدمه •• ويبدو أنه لم يكن فى مقدور « لويس » أن يفكر فى أن أى سـوء يمكن أن يصدر عن هذا الشاب الارستقراطى وسيم الطلعة اللبق •

عندما ثمل « بورجيا » بلذة الانتصار وازداد ثقة بنفسه زود مهندسه الحربى بجميع السلطات التى تمكنه من التقدم فى تحسيناته الهائلة وقد خلع عليه فى أوراق الاعتماد لقب أقدر وأحب خادم المهندس المعمارى والجنرال المهندس « ليوناردو دا فنشى » • أصبح فى استطاعة المهندس أن يذهب الى حيث يشاء دون أن يدفع أجرا ، كما أصبح فى امكانه الحصول على جميع العمال الذين يحتاجهم وعلى كل مساعدة يطلبها ، ومن ثم فلا عجب ألا ينقد « ليوناردو » خلق « سيزار » وسلوكه فهو من وجهة نظره ليس الا صاحب سلطة أعطاه فرصة تحقيق ما كان يتوق اليه دائما •

تراءت « لسيزار » خطط ومشروعات عدة لم يدر بأيها يبدأ الا أن فكرة سيطرت عليه هى ميناء « سسنا » وقد كانت نقطة حيوية فى توسيع ممتلكاته الجديدة ولكنها كانت عرضة للجفاف السريع فتصبح عديمة الأهمية • اقترح « ليوناردو » اقامة قناة بين المدينة والميناء وشرع من فوره يعمل فيها ماكثا طول الوقت فى « سسنا » •

وبينما كان « ليوناردو » سعيدا فى شق القناة ، صمم الذين شردهم « سيزار » وأخرجهم من ديارهم أن يتحدوا جميعا ويشنوا الحرب عليه وأحرزوا نجاحا مباشرا ، واستعاد دوق أرينو بلاده وأخذت الاقاليم التى غزاها « بورجيا » فى الانكماش حتى أصبح محاصرا فى ولاية « ايمولا »

أصبح « فيتيللوزو » الآن من أشد أعدائه بأسا بعد أن تخلى عنه • وبقدر ما كانت السلطات الحاكمة فى فلورنسا تكره « سيزار » كانت خشيتها من « فيتيللوزو » أشد • وكان لا بد لهم من عقد شىء من الاتفاق مع « سيزار » ومن ثم فقد بعثوا سكرتيرهم « ميكيافللى » ليتحدث اليه فى الأمر فى « ايمولا » وكان « ليوناردو » هناك أيضا •

ظل الرسام مع « سيزار » خلال الشتاء بينما الرجل الداهية ينسج خيوط دسائسه ومؤامراته وقد نجح آخر الأمر فى اغراء « فيتيللوزو »

بأن يعقد معه صداقة ثانية • لقد كان عجيبا انه كيف يمكن لرجل وغد كهذا أن ينجح المرة تلو المرة فى استغفال الناس الذين كان ينبغى أن تكون معرفتهم به أشد وأفضل •

قبل أن يختم « سيزار » جرائمه اقترف جريمة مخيفة فى «ايمولا» فقد دعى « فيتيللوزو » ومعه مرتزق آخر كان المفروض أنه على أوثق صداقة به الى وليمة كبرى وعندما حضر المأدبة قادهم سيزار من فوره بعيدا عن جنودهم الى حجرة خلفية حيث تم اغتيالهما • وبعدها بزمن غير طويل واجه سيزار الموت •

كان « ليوناردو » قد غادر « ايمولا » قبل ذلك وقد انفرط عقد بلاط « سيزار بورجيا » • وفى يناير من عام ١٥٠٣ عاد « ليوناردو » الى « فلورنسا » دون أن يأخذ أحد عليه أنه كان يعمل مع « سيزار » فقد كان هدوءه يفرض عليه سورا يقيه من الأحداث والعنف والجرائم الدامية التى تدور حوله • وقد عكف مرة أخرى على دراساته فقد كان سر الطيران يشغل عليه عقله وفكره •



« الآلات الطائرة والقنوات والرجال »

انفردت مشـــكلة الطيران دون جميع الدراســـات التى اجتـذبت « ليوناردو » بأنها الوحيدة التى ظلت تقوده ويعود اليها دون سواها من المسائل ، وذكرياته الأولى عن الطيران غريبة أشد الغرابة ، ولعلها حلم من أحلام الطفولة • ولكنها كانت حية فى ذهنه الى حد أن حديثه عنها بعد ذلك كان على أساس أنها حقيقة وقعت فعلا • فقد بدا له أنه كان يوما ما مستلقيا فى مهده فى حديقة منـزله وهو اذ ذاك فى الثـانية أو الثالثة من عمره •• وفجأة حط على صدره طائر كبير ، حدأة أو صقر ، ثم أخذ الطائر يضرب شفتيه بذيله مرة أو مرتين ، ثم انطلق طائرا •

يمكننا أن نتصور حدوث ذلك ، فنحن نعـلم أن بعض الحيـوانات تعيش على الانقضاض على الحيوانات الأخرى ، وفى بعض الأحيان تحمل صغار ما تنقض عليه من الحيوانات بعيدا ، ولعل الطائر الكبير الذى حط على مهد « ليوناردو » الصغير كان يبحث عن صيد ، وبعد فحصه لهـــذا المخلوق الحى الصغير قرر أنه أثقل من أن يحمل الى عشــه فى الجبل • ولكن هل يمكن أن يتذكر « ليوناردو » هذه المناسبة جيدا اذا كان عمره لا يزيد عن عامين ؟

سواء وقعت الحادثة بالفعل أو لم تقع فالمهم أن ما استقر فى عقله هو كثير من الأشياء التى لها صلة بالطيران ثم تعمق اهتمامه بها مثله فى ذلك كمثل الأخوين « رايت » اللذين عاشا فى أمريكا بعد ذلك بمئات السنين• ولم يقدر « ليوناردو » أن يطرد هذا الموضوع من رأسه فقد كان يعمل

فيه فترة ثم ينتقل الى شيء آخر ثم يعود اليه من جديد وهكذا ، الا أنه كان يعود دائما الى المشكلة ٠

لم يكن ليوناردو وحده في هـذا المجـال بل كانت هناك قلة من الناس تجرى التجارب وتحاول أن تصنع طائرة آلية ٠ وقد بدأ ليوناردو على نحـو ما بدأ الرواد في ميـدان الطيران بتقليد أجنحـة الطـير وكان يرقب الكيفية التي يحمل بها الشراع السفينة قدما على صفحة الماء ٠٠ وكيف يطير النسر طليقا في الهواء عاليا فوق أجوائنا ٠

خطط مشروع مركبته الطائرة بطريقته المنهجية المعتادة ، فحسب أولا ضخامة الأجنحة لتتحمل ثقل رجل ، الا أن الحجم لم يكن كافيا اذ كان عليه أن يحسب حساب الحركة ٠ كانت محاولته الأولى على أساس مبدأ الطواف ٠٠ فكان الجزء الأوسط من المركبة عبارة عن مستطيل له شكل الحدأة يرقد عليه الطيار وتربطه الى الماكينة سلاسل حديدية وعليـه أن يجذب الأجنحة بذراعيه وان يرفعها أو يخفضها لتشغيل رجليه على نحو ما يفعل راكب الدراجة وتتحكم رأس الطيار في تحريك الدفة المصنوعة على شكل ذيل طائر لتوجيه المركبة الطائرة ٠ وتصنع الأجنحة على هيئة أجنحة الطير قدر الامكان ولها ضلوع من الخشب تمتد بينها ، بينما ربط حولها القماش بشدة في حين ثبت الريش بسائل لزج ، الا أنه سرعان ما تحقق أن هذا لن يجدى ، وغير النموذج الى ما عليه شـكل جنـاح الخفاش وقد أخفق هذا أيضا ٠

في المرة الثانية التي حاول فيها « ليوناردو » أن يصنع مركبة طائرة، شرع على أساس مغاير تماما فقد كان الطيار في هذه المرة يقف منتصبـا بين شيئين مثل عكازين وتدور الأجنحة مثل الهليوكوبتر وكان بالمركبة سلـّمان كأرجل الطير يقلع بهما الطيار وكان عليه أن يرفعهما عندما يصبح في الهواء على نحو ما تسحب أجهزة الهبوط في طائرة العصر الحاضر ٠

تبين من مذكراته أنه كان يجرى تجارب اختراعه فوق سقف قلعة

« ميلان » حيث كان يعمل بعيدا عن الأنظار ، وبينما هو يحاول الوصول الى طريقة تحفظه من الأذى اذا لم تشتغل الماكينة ، اذ به يقع على اختراع صغير مفيد فنراه يكتب في مذكراته « اذا كان لدى المرء سقف خيمة من التيل عرضه ١٢ « الز » وارتفاعه ١٢ « الز » فانه يمكنه أن يقع من أي ارتفاع عظيم دون أن يلحقه ضرر » كان هذا بطبيعة الحال هو الباراشوت •

قام « ليوناردو » بهذا البحث المبكر في أثناء اقامته في « ميلان » قبل سقراط « لوديفيكو » ، وقد تكون همته في هذا الموضوع قد ثبطت • أو قد يكون بعد ذلك قد ترك هذا الموضوع تدفعه خارج ذهنه تلك الأمور التي شغلته بعدها طويلا ، فاذا ما عاد للتفكير فيه من جديد أحدث به تغييرات هامة متعددة ، فنراه يزود الماكينة بموتور ثم يعود فيطرح هذا الأمر جانبا لمدة طويلة ، حتى جاء عام ١٥٠٣، في ذلك العام كان «ليوناردو» ما يزال في « فلورنسا » ، اخترع عالم آخر طائرة آلية كان يعمل فيها مثلما كان يعمل « ليوناردو » منذ أمد بعيد وقد أنجز هذا العالم طائرته وأعلن أنه سيقوم بتجربتها أمام الناس ، وأقبل ملأ غفير لمشاهدة التجربة وقد أقلع المخترع بطائرته من سقف كنيسة كانت بأعلى مكان في المدينة • وحومت الطائرة دقيقة أو دقيقتين ثم تحطمت بسقوطها على سقف الكنيسة مرة ثانية ، وقد تناثرت أشلاؤها وكسرت ساعد المخترع •

لم يسمع بعد ذلك عن هذه الطائرة شيئا ، ولكن التجربة جعلت « ليوناردو » يبدأ في التفكير مرة ثانية في محاولاته للطيران •

مضت شهور لم يفعل ليوناردو فيها شيئا لا في الرسم ولا في غيره ، كان يلاحظ الطيور في طيرانها ويرسم الاسكتشات ، ويعكف على التجارب ولا شيء غير ذلك • ولم تكن الطيور التي يلقاها تشبع غرضه وكان يريد أن يقترب منها أكثر باضطهاد ، فنراه يذهب أحيانا الى السوق حيث تعرض الطيور الصغيرة للبيع اما للاقتناء أو للأكل ، ويشتري واحدة أو اثنتين

ثم يفتح لها القفص ويدعها تطير وهو يرقبهـا عن كثب وهى تبتعـد فى طيرانها •• وما كان انسان فى الدنيا يمكنه أن يفهم ماذا هو فاعل •

كانت فلورنسا فى ذلك الوقت فى حالة حرب مع « بيزا » ، وتذكر حكام المدينة فى وقت متأخر أن « ليوناردو » ابن جلدتهم له صيت ذائع فى اختراع الأسلحة الجديدة ، وأنه كان مهندسا حربيا فاستدعوه يسألونه النصح فى كيفية هزيمة المدينة المعادية • فهداهم « ليوناردو » الى فـكرة غاية فى البساطة وفى نفس الوقت غاية فى الفاعلية •• لماذا لم تقطعوا عن « بيزا » مورد مائها ؟

تقع « بيزا » على نهر « ارنو » فى أسفل المجرى من فلورنسا، ويعتبر نهر ارنو الذى يجرى مستقيما فى وسط « فلورنسا » هو نهرها الكبير • فلماذا لا نذهب الى نقطة بين المدينتين ونحفر القنوات فيتحول النهر كله عبر طريق قصير الى البحر • وبغير الماء لا تقوى « بيزا » على شىء •

بعث المسئولون «ليوناردو» على الفور الى خارج المدينة لمسح المنطقة ، وليرى اذا ما كان من الممـكن تنفيذ الفـكرة عمليا • وكان كل خبـير يستشار فى هذه الفكرة يوافق عليها • وسرعان ما وضع المشروع موضع التنفيذ • وكان « ميكافللى » صديق « ليوناردو » يحضر الى منطقة العمل بين الفينة والفينة يرتب أجور العمال وغير ذلك من الأمور •

لم يكن « ليوناردو » من ذلك النوع من الناس الذى يخترع شيئا ثم يدع رجلا آخر يقوم بتنفيذه ، بل نراه بدلا من ذلك يذهب الى مكان الحفر ويعيش هناك للاشراف على المشروع • كان مهتما بجميع التفاصيل ولم تكن الطريقة التقليدية لأداء عمل من الأعمال تقنعه أبدا ، ما دام فى امكانه أن يفكر فى طريقة توفر فى العمل وتنجزه على وجه أكثر حسنا ودعة • فاذا به يخترع طاحونة تدار بحيث تفرغ التراب من أرض مجرى القناة عن طريق «جرادل» مثبتة فى عجلة دائرية •

اخترع « ونشا » يدار بوساطة اليد • كان هذا الونش يدلى بوزن ثور يسير بداخله ، وفى نفس الوقت كان الثقل يرفع زكيبة من الأحجار أو التراب من الطرف الآخر من الحبل ثم يعاد وزن الثور خارج الجانب العكسى للميزان فيرتفع الونش ثانية • وبعد ثلاثة قرون ونصف قرن من هـــذا الوقت اخترع مهندس فرنسى « ونشـــا » بنفس الفكرة ونفس الترتيب •

كان العمل يسير فى حفر القناة على ما يرام ، ثم ترك هذا العمل بعد شهور قليلة اذ اختفى فجأة سبب حفرها ، فقد مات الأشخاص الرئيسيون وراء النزاع الأصلى ، وكان مما يسعد الحكومة فى فلورنسا أن تتخلى عن فكرة شن الحرب على « بيزا » •

وجد « ليوناردو » نفسه بلا عمل فاتجه فكره الى وجهة أخرى جديدة ، ذلك أنه كان مهتما بالقناة من حيث هى مشكلة أكثر من اهتمامه بها من حيث هى اجراء ضد عدو • وها قد عاد السلام الى مدينته فأخذ يفكر بأن عمله كان ينبغى أن يرصد المعمل البنَّاء وحده ، وكان منطقه أنهم ما دام فى استطاعتهم شق القنوات فلم لا يبنون واحدة للاستخدام السلمى ؟

يمكنه تنظيم مجرى « أرنو » بجعله يمر فوق فلورنســا بدلا من أسفلها ، ويمكن شق القناة خلال ثلاثة بلاد لتنمية الصناعات المحلية فيها، فغزالو الصوف وطحانو الغــلال ونســاجو الحرير والحدادون والنجارون والوراقون وجميع الصناعات يمكن تشغيلها بقوة المياه وبذا يعم الرخاء •

كان فى استطاعة « ليوناردو » اقناع الهيئة الحاكمة بأن مثل هـــذا المشروع العملاق سوف يفيد الدولة كثيرا ، فبدىء العمل فى القناة ولكنه وجد نفسه فى وضع ألفه من قبل ، وضع من يحتاج المال ليحفظ الحيــاة لنفسه ومعيشته • وعلى العادة اتجه الى الموهبة الوحيدة التى لم تخيب ظنه أبدا •• الرسم •

أرادت الهيئة الحاكمة أن تخلد ذكرى هذا العام السعيد الذى بدا كل شيء فيه يسير على خير ما يرام • واحتاجت الى رسوم من الأفرسك تزين سقف غرفة المجلس • ولما عرض « ليوناردو » خدماته وافقت الادارة على تكليفه بالأمر وأخبروه بما فى رءوسهم من موضوع للوحة المطلوبة وهو قصة «معركة انجيارا عام ١٤٤٠» التى هزم فيها الفلورنسيون الميلانيين •

دفع « ليوناردو » بنفسه الى معمعة العمل بنفس النشاط والحيوية التى أبداها عندما تولى العمل فى لوحة العشاء الأخير • لقد جذبه عنصر التجديد فى هذا الموضوع فاذا بالفنان الذى رسم الصور الساكنة للعذراء وطفلها ينفق كل وقته الان يفكر فى مناظر العنف ، من جياد جامحة ومقاتلين صناديد وساحات معارك مرتوية بالدماء •

ظل « ليوناردو » فترة طويلة برسم استكشات تمهيدية لجياد تخوض معركة ، كما اتخذ نماذج صارخة للوجوه البشرية التى رسمها للرجال المقاتلين فهم غاضبون يولولون ، كما رسم وجوه الخيل وقد تجمدت شفاهها الى الخلف بينما غطت وجوهها مسحة من الغضب ، حتى أنه كان يشق فى النهاية على المرء أن يتبين ما يراه مرسوما أهو جواد أم انسان • وكان « الاسكتش » النهائى للوحة كتلة متداخلة من الجياد والرجال اختلط الجميع فيها فى معركة مباشرة ضارية • وقد وضع « ليوناردو » تخطيطا للوحته بحيث تناسب بصورة طبيعية وجودها فوق نوافذ حجرة المجلس فقد استخدم النوافذ وكأنها «كبارى» فى لوحته •

استغرق هذا الاعداد وقتا طويلا حتى فرغ صبر الهيئة الحاكمة التى انتظرت وطال انتظارها • فلما كان عام ١٥٠٤ ضغطوا عليه على نحو ما يفعل عملاؤه الآخرون معه من قبل خوفا من عدم حصولهم على لوحاتهم بالمرة بغير هذا الالحاح وهذا الضغط • ذكروه أنهم دفعوا له مبلغا مقدما من المال وأنهم يريدون الحصول على اللوحة قبل مضى سنة ، غير

أن هذا الانذار لم يدفع ليوناردو الى العمل فى مرسمه فقد كان غارقا حتي أذنيه في شق القناة وفي نظرياته وأبحاثه • كان ليوناردو وقد اجتذبه الماء الآن وكان بصدد أن يفرغ من رسالته فيه •

عاد « ليوناردو » بعد حبه للماء الى حبه القديم للضوء ، ومن هنا أخذ يتقدم ومعه استفهاماته الكبرى • ماطبيعة الأرض ؟ ما علاقة الهواء والنار والماء بالكوكب ؟ هل القمر محاط هو الآخر بهذه العناصر ؟ هل الشمس كوكب ؟ وهل تدور حقيقة حول الأرض ـ على نحو ما كان الاعتقاد وقت ذاك ؟

تستطيع أن تلمس من هذه الأسئلة أنها كانت تدعو الى التفكير الدقيق العميق • فلم يكن عجيب اذن أن ينصرف « ليوناردو » عن لوحة معركة « انجيارا » وبدلا من رسم اللوحة يخترع تلسكوبا •

مات الرجل القاسى غليظ القلب « بيرو دافينشى » فى يوليو عام ١٥٠٤ وله من العمر ٧٧ عاما ، ويبدو أن «ليوناردو» لم يحزن على وفاة أبيه فقد سجل الحادث فى مذكراته مضيفا اليه أنه ترك عشرة أولاد وابنتين • وربما كان شعوره مشوبا بالأسف ولكنه لم يذكر شيئا عن هذا الأسى ، وما كان مثله من يدون فى مذكراته مثل هذه الأشياء وعند قراءة وصية «بيرو» اكتشف «ليوناردو» أن أباه ما كان يعبأ به ، بل لعله نسى ابنه الأكبر كلية • أو لعله اعتقد أن «ليوناردو» قد غدا مشهورا وغنيا بحيث أنه لا يحتاج الى نقود أبيه • مهما يكن السبب فان «بيرو» قد ترك ماله من بعده قسمة على أبنائه الأحد عشر دون «ليوناردو» • وقد تنازع الاخوة والأخوات ولم يقتنع أحد منهم بنصيبه ودب الصراع بينهم •• كل يريد أكثر مما يستحق وانتهى بهم الأمر الى ساحة القضاء للحكم بينهم فى شأن ميراثهم هذا •

كان «لبيرو» أخ يدعى «فرانسسكو»• وكان يعيش فى بيت «فنشى»

وكان دائم الشغف «بليوناردو» وقد استثارته نصوص الوصية التى حرمت «ليوناردو» من ميراث أبيه • ولكى يعبر عن شعوره هذا كتب وصيته فى الحال على أن « ليوناردو » هو وريثه الوحيد • وكان مما يفرح ليوناردو أن يحصل على كل هذا المال عندما يموت «فرانسسكو» ، فعلى الرغم من ذيوع صيته الا أنه كان يعانى من ضيق ذات اليد ، وتدل مذكراته على أنه كان يبذل قصارى جهده ليقتصد فى نفقات عيشه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لا تشاركه العيش غير امرأة عجوز تخدمه ، وفى الوقت الذى ذهب فيه اخوته الى القضاء فى نزاعهم على الميراث رفض «ليوناردو» أن يحاول الحصول على نصيب له فى التركة ، ولكن عمه «فرانسسكو» وأصدقاءه الآخرين دفعوه الى الطعن فى الوصية دفعا ، حتى قدم طلبا فى نهاية الأمر ، ويبدو أنه نال شيئا من التركة • ومهما يكن من شىء فقد استغرق الأمر سنوات ••

فى الوقت الذى توفى فيه والده كان غارقا فى المتاعب فلم يبلغ مشروع القناة غايته المرجوة • كان العمل فى أول الأمر على خير مايرام، والنهر يجرى فى طريقه المرسوم تتدفق مياهه فى القناة الجديدة التى تم حفرها، حتى اذا حل موسم الهجير جف النهر كما كان يحدث له أحيانا، وعندما عادت المياه تجرى فيه من جديد اتخذت طريقها فى المجرى القديم• اختلفت الآراء عن اعادة العمل لتصحيح المشروع وهو ما يكلف كثيرا ، أو الانصراف عنه كلية ، وثار جدل عنيف فى هذا الموضوع وصراع طويل فى هذا الصدد حتى انتهى الأمر بعودة العمال الى منطقة المشروع لممارسة العمل وقد أعد كل شىء ، وعندئذ استطاع من هم فى صف « ليوناردو » وخاصة « مكيافللى » أن يتنفسوا الصعداء •

جاءت أمطار الخريف أسوأ من المعتاد ففاضت القناة وتحطمت بعض السفن التى كانت قد لاذت بحوضها قرب البحر وغرق ثمانون بحارا •

ثار الرأى العام ثورة عنيفة ضد القناة ، وتسلم شعب « بيزا » زمام

الأمر فى يده وأخذ يردم القناة وكان الجميع يسخرون من أهالى فلورنسا وبطبيعة الحال كانت سخريتهم من « ليوناردو » أشد •

عاد « ليوناردو » الى لوحة « الأفرسك » وكان المعتاد أنه اذا ماساءت الأمور فى أوجه نشاطه الأخرى على غير مايرجو ، كان يجد فى الرسم ما يجعله ينسى الصفعة التى نالها غروره • وكان الرسم الذى لا يرضى طموحه هو الشيء الوحيد الذى يعتقد الناس جميعا أنه يجيده عما سواه• وان كان «ليوناردو» يهمل الرسم أحيانا عندما تتاح له الفرصة الا أنه كان واثقا من جنى ثمرة العمل فيه ، فعن طريقه حصل على الثناء الذى تبغيه نفسه • ولكن حدث فى دنيا الرسم ما عكر صفوه وكدر عيشه بين الفنانين كما هو الحال بين غيرهم من جماعات الناس ، تظهر الموضة وتختفى ، تشرق وتغيب ، كانت رسوم « ليوناردو » تبدو كأنها فوق قوانين التغيير ، ولكن كانت هناك كفايات دائبة وقلوب تتحطم واتهامات توجه بين الفنانين • لقد كهرب الجو فى فلورنسا ظهور شاب يدعى « ميكل انجلو بوناروتى » يرسم وينحت بطريقة جديدة • كان « ميكل انجلو » يركز اهتمامه على التطور العضلى فكان أشخاصه فى الرسم يبدون دائما وكأن كل عضلة فى أجسامهم تؤدى عملها • كان يمتاز بعنف وقوة لم تشاهد من قبل فى أعمال الفنانين الفلورنسيين الذين كانوا يهدفون دائما الى العذوبة الدينية الهادئة •

اختلف شعور الفنانين بالنسبة لهذا الأسلوب الجديد • رحب به البعض على أنه تغيير مثير وصدم به البعض الآخر • غير أن الجميع أيقنوا أنهم يقفون وجها لوجه أمام تطور هام جديد • وقد أثار الناس تمثال «ميكل انجلو» الجديد «داوود» المشهور وكانوا يسمونه العملاق •

عندما عرض تمثال «داوود» جاء الناس جميعا يشهدونه ومعهم «ليوناردو» الذى ما كانت تنتابه الغيرة أبدا على نحو ما تنتاب الآخرين من زملائه فقد أثار التمثال اهتمامه كما يثيره كل شيء جديد وعندما ناشدته

اللجنة الرأى بصدد النزاع القائم حول التمثال قال رأيه بصراحة ودون تحيز •

كان موضوع النزاع هل يوضع تمثال «داوود» المرمرى فى الميدان أمام سراى الهيئة الحاكمة ؟ فهو المكان الذى يمثل أقصى تكريم يمكن أن يناله تمثال فى فلورنسا • ولكن المرمر لا يعيش طويلا فى الشمس والمطر فهل يوضع اذن فى « لوجيا دى لانزى » حيث يحميه سقف ؟ ولكنه لا يكون على مرأى من أعين الجمهور كما فى الميدان •• وكان يطيب لكثير من الفنانين فى ذلك الوقت أن يزيحوا التمثال من طريق الميدان المكشوف ما أمكنهم ذلك •

أدى الجدل واحتدام النقاش الى هياج المشاعر لدرجة رأى معها أصحاب « مايكل انجلو » القيام بحراسة التمثال طول الليل حتى لايناله ضرر أو تلف• كان أشخاص مجهولون يقذفون التمثال بالحجارة ، وان لم يعرف الفعلة بالضبط الا أن « مايكل انجلو » كان على حق فى الاعتقاد بأن هذا من فعل منافسيه •

كان « مايكل انجلو » سريع التأثر يشك فى كل شىء • وقد جعله نجاحه المفاجىء وما صاحب هذا النجاح من نقد ، يشك فى الناس جميعا ويعتقد أنهم ضده • وكمعظم الفنانين الشبان كان يحتقر أبناء الجيل القديم من الفنانين •

وقد جعلته المناقشة حول المكان الذى يوضع فيه تمثاله يغلى هائجا غاضبا اذ كان يريد وضع تمثاله فى أبرز مكان أمام السراى ولا يهمه الريح أو المطر •

ظل الحديث بين أهل فلورنسا حول التمثال لا ينتهى ، ثم عمدوا الى استجلاء آراء مختلف الفنانين فى هذا الصدد • وعندما سألوا « ليوناردو »

أين ينبغي أن يوضع التمثال ؟ كان جوابه يتفق مع فنان آخر وكان هذا الفنان عادلا ومعقولا فى عبارته ، اذ قال انه يظن أن التمثال يجب أن يحمى فى «لوجيا» وفى الحال اتخذ ميكل انجلو قراره بأن «ليوناردو» ضده مثل غيره من الفنانين •

فى نهاية الأمر تقرر أن يكون اختيار الموقع من شأن «ميكل انجلو» نفسه وكان رأيه هو الساحة المكشوفة أمام السراى وقد كان له ما أراد •

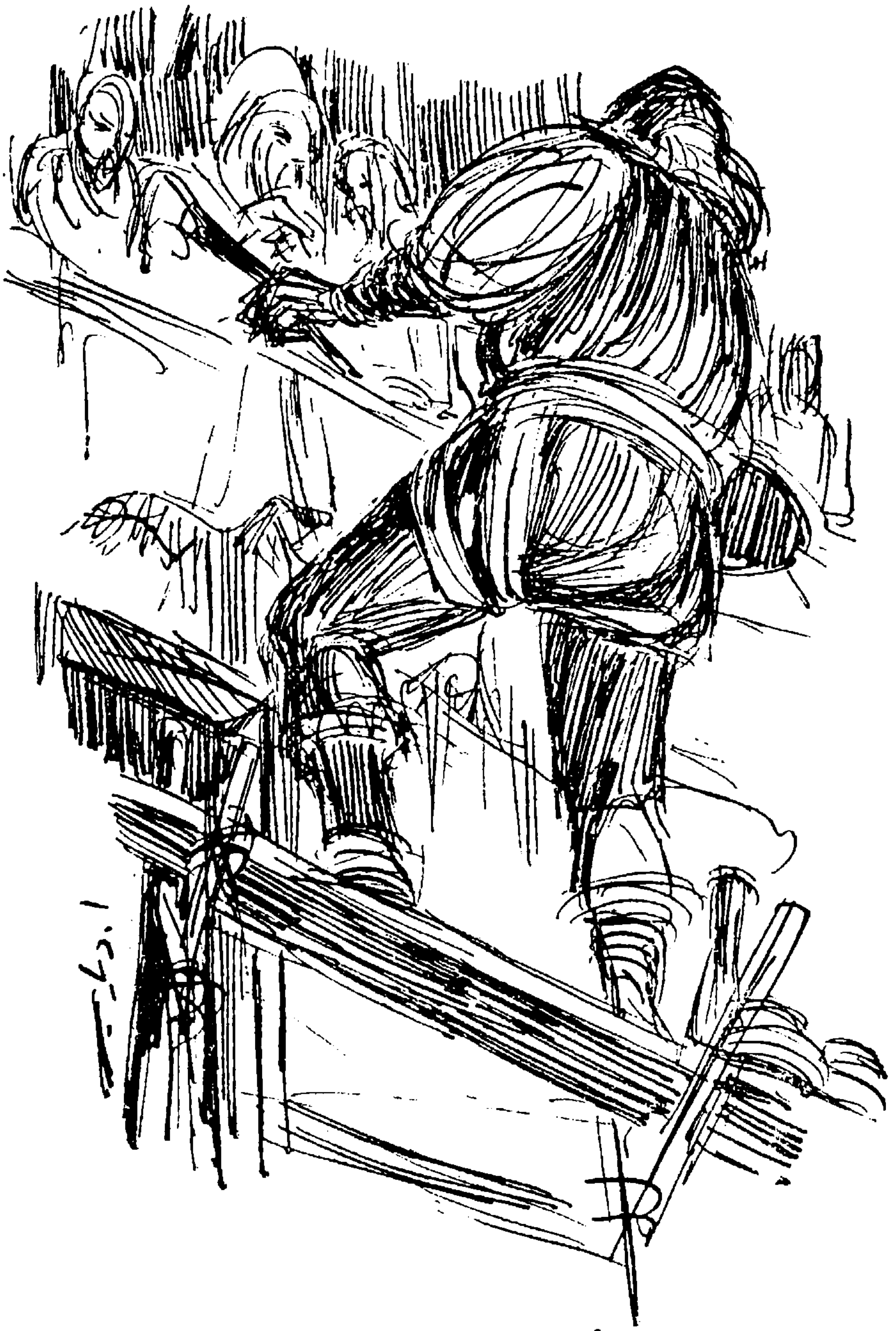
ثبت فى عقل الفنان الشاب فكرة أن هذا الرجل العظيم « ليوناردو » هذا العجوز المدلل المتكبر ـ كان ليوناردو فى الخمسين من عمره ـ عدو له • كان ظن « ميكل انجلو » أن أعداءه كثيرون وأن أسوأهم «ليوناردو»• وفيما تلا ذلك من أيام نشب الشجار بين ميكل انجلو وغيره من أهل الفن• ثم جاء الوقت الذى انفجر فيه فى وجه «ليوناردو» وجعله أكثر غضبا منه•

اعتاد كثير من أهل فلورنسا الجلوس فى حلقات يتناقشون ويتحدثون فى الفلسفة ويتلاعبون بالأفكار والكلمات ويناقشــون الآداب القديمة فى أسلوب جذاب لطيف ، وذات يوم بينما كانت جماعة منهم تزاول هــذا اللون من تزجية الفراغ ، أبصروا « ليوناردو » يمر بهم فحيوه وطلبوا منه الانضمام اليهم ليحكم فى نقطة خلاف بينهم ، وكان هذا النــوع من اللهو قد تفوق فيه « ليوناردو » • كان السؤال يتعلق الى حد ما بالشاعر « دانتى » وكان « ليوناردو » يعلم أن « ميكل انجلو » مغرم بهذا الشاعر وعلى دراية بالكثير من أشعاره • ومن ثم فقد أشار الى الفتى وقال فى لطف : يحسن بكم سؤال ميكل انجلو فسيشرح لكم الأمر •

استشاط ميكل انجلو غضبا وبدلا من أن يتحقق أن العبارة كانت رقيقة وأنها تحية صادقة من فنان قديم عجوز الى فنان شاب لامع اذ به يعتبرها اهانة تصفعــه فصاح : اشرحها أنت بنفسك يا من صنعت نموذجا

لحصان برونزى ثم لم يمكنك صبه فتوليت عن العمل عاجزا • خيم الصمت الأخرس على الجميع بينما قام « ميكل انجلو » يغادر المكان ولكنه توقف لحظة ليضيف اهانة أخرى •• « وهؤلاء الميلانيون السذج عهـدوا بعمل كهذا الى من هو مثلك !! » •

توقف « ليوناردو » عندها لحظة وقد احمر وجهه خجلا ثم سار فى طريقه صامتا ساكنا •



الأمل يعقب خيبة الأمل

تألم «ليوناردو» كثيرا من اهانة «مايكل انجلو» ، فقد كان الحصان البرونزى قريبا الى قلبه • وقد تحقق «ليوناردو» أن من يسعى الى القيام بأعمال عظيمة خالدة لا بد أن يواجه فشــلا ذريعـا من وقت الى آخــر ، ولكنه مع ذلك كان يؤلمه أن ترسب فى أعماق نفسه هذه الذكرى بالذات، ذكرى هذا الاخفاق دون غيره ، ولم يكن من العدل فى شىء أن يستهان به هكذا ، فما سنحت له الفــرصة مطلقا لصب الجــواد فى قالب البرونز ولكن « ميكل انجلو » قد جعل الأمر كما لو أنه حاول أن يفعل ذلك ثم لم ينجح فى عمله •

يبدو أن النحات الشاب قد عزم فى نفسه أن يضطهد الفنان العجوز • عندما طلبت الهيئة الحاكمــة الى « ليــوناردو » أن يزين غــرفة المجلس بالأفرسك وكانت لوحة معركة « انجيارا » تحتل جانبا واحدا من الغرفة ، نرى « ميكل انجلو » يتقدم الى الهيئة طالبا أن يعهد اليه برسم الجــانب المقابل ، وقبلت الهيئة عرضه ، وهم معذورون فى ذلك فقد كان «ليوناردو» بطيئا غاية البطء ، وكثيرا ما عمد زبائنه من قبل الى فنانين غيره بعد اليأس والقنوط من الانتظار سنوات •• وسنوات ، وبرغم ذلك فقد ضايق هذا الأمر « ليوناردو » •

شرع « ميكل انجلو » يعمل من فوره فى موضوعه • جماعة من الجند يستحمون وقد كشفت أجسامهم العارية عن عضلاتهم التى كان يجيد رسمها • ومنذ بدأ فى اعداد الاسكتش وطلبة الفن فى فلورنسا ينعمــون بفرصة ذهبيــة رائعة ، فهم فى غــدوهم ورواحهــم من مرسم الى آخــر

يقارنون بين عمل الفنانين الكبيرين المشهورين ، يتحدثون عنهما ويمايزون بين أسلوب كل منهما ولم يقتصر الأمر على طلبة الفن ممن كانوا يراقبون الفنانين بل بدا لمدينة فلورنسا كلها أن تشارك في الأمر •

وقع « ليوناردو » عقدا بأن الاسكتش النهائي سوف يكون معدا في وقت معين ومن العجب كل العجب أن يوفى « ليوناردو » بالتزامه • لقد هاجه « ميكل انجلو » واستحث سرعته في العمل • وفي نهاية الأمر كان « ليوناردو » مستعدا لرسم الاسكتش على الحائط ، فأقيمت السقالة ليعمل من فوقها كما كانت عادة رسامي الجدران • بدأ «ليوناردو» يخلط أنواع الطلاء ، أو ان شئت فقل يوجه مساعديه في هذا الشأن • ان أول مشكلة تواجه رسام الأفرسك مشكلة اعداد السطح الذى سيرسم عليه الصورة ، فعلى نحو ماسبق أن أعد «ليوناردو» الجدار للوحة العشاء الأخير كان لا بد له من وضع شيء على البياض أو الحجر في حائط غرفة المجلس التي كانت من الرطوبة والخشونة بحيث يصعب أن تحتفظ بطلاء أو لون ، وكان عليه كذلك أن يغطي الرسم بمادة مثبتة بعد أن يفرغ من اللوحة •

كان اختيار المادة التي تستخدم في اللوحة أمرا يجذب اهتمام الفنانين فلكل أفكاره ولكل طريقته • أراد ليوناردو هذه المرة أن يجرب طرقا جديدة ، ففيما يتعلق بالمثبت نراه يستخدم تركيبا كان قد قرأ عنه في كتاب قديم وقد جربه في مبدأ الأمر على الاسكتش النهائي فوفى بالغرض •

وكانت المشكلة تنحصر في أن هذا المثبت يستغرق وقتا طويلا ليجف ، ولما فرغ « ليوناردو » اذا به يفكر في طريقة تسرع بالتجفيف فأشعل نارا في مكان مجاور وأغلق الغرفة فأدى هذا الاجراء وظيفته على أكمل وجه •

بدأ « ليوناردو » العمل في أهم جزء من لوحة الأفرسك ، يفصل الأشكال ويملؤها بالطلاء • وقد استغرق هذا العمل وقتا طويلا جدا كما

كانت تستغرق كل رسومه • ولكنها عندما اقتربت من النهاية رأى أهل فلورنسا أنها لوحة جديرة بكل هذا الانتظار الطويل واتفقوا على أنها من أحسن ما صنع « ليوناردو » • كان الجنود والخيل المتصارعة ، والالوان الوهاجة والتصميم الهندسى للوحة نموذجا جديدا فى رسوم الأفرسك لم يخرج من قبل الى الوجود • لقد بدا أقرب ما يكون الى الجواهر المرصعة منه الى الطلاء •

أحس « ليوناردو » أنه قد أتى عملا عظيما حقا وهو الذى لم يكن يرضيه عمل قام به من قبل • لم تكن هذه اللوحة السبب فى ذيوع صيته فقد كان مشهورا من قبل ولكنها كانت ترضية لأنها أحسن كثيرا من عمل ميكل انجلو بكل ما فيه من جهد وعنف • ومن ثم كان طبيعيا أن يفخر بنفسه ولا بد أنه كان مسرورا أن يرى الفنان الشاب الذى قسا عليه فى شأن جواده البرونزى أنه لا زال أستاذا • شىء واحد ظل يضايق « ليوناردو » فى أمر هذه اللوحة بعد أن فرغ منها ، ذلك هو المثبت الذى بقى رطبا لمدة طويلة وظل الطلاء لزجا أيضا وكان هذا الأمر جد خطير فالطلاء المبلل الرطب يجذب التراب والحشرات • وقد قال من نقدوه فيما بعد أن « ليوناردو » كان مخطئا فى قلقه اذ كان ينبغى عليه أن يدع اللوحة وشأنها فلا بد لها أن تجف تلقائيا مع الزمن • ولكن ذلك لم يكن رأى « ليوناردو » لقد جفف الاسكتش النهائى بنار ساخنة ، ولم يبد له سبب يمنعه من محاولة نفس الحيلة مع اللوحة وقد فرغ منها •

وكما فعل من قبل ، أشعل «ليوناردو» ناراً قرب ذلك الجزء من الجدار وانتظر فى ثقة أن تقوم بدورها • غير أن هذه المرة حدث شىء رهيب •• ولا بد أن الطلاء لم يكن قد أحسن خلطه ، فعندما اقتربت ألسنة اللهب من الجياد والمقاتلين أخذت الألوان تسيل أسفل الجدار ، وأمام عينيه الفزعتين اختفى العمل العظيم وتحول الى مسخ بنى اللون لا شكل له •

كان هذا الاخفاق مأساة أخرى « لليوناردو » ويمكنك أن تتخيل شعوره اذ ذاك ، وسيجد « ميكل انجلو » جميع أسباب السخرية منه والهزء به ، وستشكو الهيئة الحاكمة • وقد بدأوا فعلا يتحدثون عن جودة لوحة « ميكل انجلو » •لقد كانت منافسة خسر فيها « ليوناردو » أو على الأقل خسر منها الجولة الأولى ، وفي هذه المحنة النفسية التى اجتازتها مشاعره، أحس بأن قلبه لن يستطيع أن يتحمل تجربة أخرى فى لوحة الأفرسك•

فى الوقت الذى كان يرسم فيه معركة « انجيارا » كان يقوم بعدة أشياء فى وقت واحد • كان يكتب رسالة من أربعة أجزاء فى طيران الطيور • وكان يحاول بصورة سرية تركيب الماكينة الطائرة التى ستطير هذه المرة طيرانا صحيحا •• كذلك كان يرسم فى صورة أثارت اهتمامه أكثر من غيرها • فقد كان لها تاريخ يختلف عن سواها •

كانت هذه اللوحة هي صورة « مونا ليزا ديل جياكوندو » زوجة تاجر ثرى• وظلت هذه الصورة وموضوعها شغل الناس وحديثهم وتعجبهم من أمر «ليوناردو» تجاهها ، لقد رفض طلب الكثير من السيدات ومن هن أكثر منها جمالا وثراء أو أكرم حسبا ونسبا عندما سألنه أن يرسم لهن صورهن ، أما هذه السيدة فلكى يجعلها تبتسم بالطريقة التى يريدها فانه يذهب الى استئجار الموسيقيين للحضور الى بيته يعزفون لها وهى جالسة حتى لا تضيق ذرعا بالجلوس والابتسامة • لم كل هذا العناء من أجل امرأة واحدة ؟

فكر بعض الناس بطبيعة الحال فى أنه كان على حب معها ، الا أن أصدقاءه لم يفكروا هذا التفكير ويبدو أنه من المستبعد أنه كان يهواها ففى حياته كلها لم يؤثر عن « ليوناردو » الوقوع فى حب بطريقة عاطفية، فقد كان غارقا لأذنيه فى مئات الأشياء التى يدرسها ، كما لم تثر الأقاويل حول « موناليزا » • ومجرد حب لا يشرح هذا الاهتمام البالغ باللوحة فى

أية صورة من الصور فالرسم والحب لا يختلطان على هذا النحو فى غالب الأحيان •

كانت « موناليزا » امرأة حسنة المنظر ولكنها ليست صارخة الجمال ولا هى كما تقول كل المصادر على جانب من الذكاء أو مثيرة للاهتمام بصورة خاصة ، وكل ما هناك أنها مجرد موضوع للوحة ظل «ليوناردو» يعمل فيها سنوات عدة • لقد وضع كل شىء يعرفه من الفن فى تلك اللوحة المعروفة « بموناليزا » •

لا بد أنك شاهدت نسخا منها مئات المرات • وقد سرقت هذه اللوحة منذ وقت غير بعيد من متحف « اللوفر » بباريس ثم استعيدت مرة ثانية • وقد كتبت عشرات القصص الرومانتيكية حلوها ، وعندما تعرض اللوحة فى مكان ما ترى الناس يقفون صفا طويلا لرؤيتها ولعلها أشهر اللوحات المعروفة فى العالم ، لقد كتب فيها النقاد آلاف الكلمات ، المنظر الطبيعى من الخلف ، الابتسامة الغامضة على وجه السيدة (و •• و •• ثم تبادروا فى التفكير ترى ما تعنى الابتسامة ؟ ••

ستطالعك عاجلا أو آجلا مقالة الناقد الفنى « وولتر باتر » عن « موناليزا » التى يقول فيها أن جفونها الساحرة تبدو هائمة شاردة ولعلك تعجب كما عجب أناس غيرك فيم هذه الضجة كلها ؟؟ •• ان ناقدا آخر يقول فى برود : ان « موناليزا » تبدو كصاحبة منزل فى مصيف على البحر تبتسم فى خبث وخداع وهى تخمن كم يمكنها أن تطالبك بأجر الغرفة • ويشرح معظم الفنانين رأيهم فى هذا الصدد بقولهم ان الموضوع فى الرسم لا يهم بقدر أهمية الطريقة التى يعالج بها هذا الموضوع • والمؤكد أنه من العبث أن ننصرف الى التفكير فى علاقة هذه السيدة « بليوناردو » •

ان ابتسامة « موناليزا » الذائعة الصيت تشبه فى واقع الأمر الى حد بعيد الابتسامة التى رسمها « ليوناردو » على عدة وجوه فى صور أخرى

كثيرة • انها تبدو كابتسامة «ليدا» في لوحة « ليدا والبجعة » ومثل ابتسامة « سنت جون » في لوحة رسمت بعد ذلك • وانه لمن الغباء في نظري أن نثرثر عن الرسم • انك اذ تنظر وتشاهد فذلك شيء قائم بذاته • أما أن تسمع وأن تقرأ فذاك أمر آخر • وفي رأيي أن « ليوناردو » كان يجهد نفسه في هذه اللوحة طلبا لراحة نفسه بعد أن ساءت الأمور في لوحة « معركة انجيارا » ومع ذلك « فموناليزا » ليست جميلة في نظري •

واذا كان يمكن لشائعة قديمة أن تؤخذ مأخذ الجد ، فان ذلك العام يمثل خيبة أمل عميقة أخرى في حياة « ليوناردو » والسبب هو انكشاف سر آلته الطائرة الذي حرص على كتمانه • ويبدو أن القوم قد تيقنوا من تجربته لآلة الطيران الجديدة التي ابتكرها والتي كان يكتب عنها كثيرا في مذكراته •

أصبح « ليوناردو » بعد ذلك ماكرا فهو لا يطلق على آلته اسم آلة الطيران وانما يكتب الطائر الكبير وهو بذلك يخفي سره ، وما كان الكتاب الذي خططه عن تحليق الطيور الا جزءا من استعداداته في هذا الصدد •

لم يتوقف « ليوناردو » عند دراسة الطيور ، فقد درس الخفافيش والحشرات كذلك، ودرس الطريقة التي خلقت بها أجنحتها وعضلاتها ، •• وجميع التفاصيل التي استطاع مشاهدتها • وقد تبين له أن الطير لا تقتضيه الضرورة أن يستمر في تحريك جناحيه حتى يظل عاليا في الهواء ، فكثيرا ما يتهاوى في الجو مستفيدا من الرياح ، وبينما هو يراقب كيف يقود الطير نفسه ، وقع على عديد من القوانين الميكانيكية •

راقب « ليوناردو » الطير أكثر من غيره فهو يكتب » : ان بدايات الأشياء في الغالب أسباب للنتائج الباهرة الكبيرة • وهذه الطيور التي يمكنها أن تقيم نفسها فوق مجرى الريح بغير أن تضرب بأجنحتها تأتي بحركة خفيفة من الجناح أو الذيل تمكنها من الدخول أسفل الريح أو

فوقه •• وهذه الحركة الطفيفة كافية لمنع الطائر من السقوط •• » وقد لاحظ « ليوناردو » أن الطيور تمنع نفسها من الهبوط الفجائي بوساطة انزال الذيل الى أسفل ونشر الريش الى الخارج •

ويقال ان الناس لا يستطيعون الطيران بأجنحة كتلك التي يطير بوساطتها الطائر • فالانسان في حاجة الى أجنحة واسعة المدى من الضخامة لتحمل وزنه في الهواء • والعضلات اللازمة لتحريك مثل هذه الأجنحة لا تتناسب الى حد أن الانسان سيبدو في شكل حيوان ضخم مخيف • وكان هذا الرأى سائدا أيام « ليوناردو » ولكنه لم يقتنع بهذه الآراء السائدة • وهو وان كان لا يتوقع أن ينتج أجنحة حقيقية الا أنه كان يجادل بالقول ان الآلة الطائرة لا تحتاج لأجنحة ضخمة بهذا الحد ، فالطائر له من العضلات أكثر من حاجته لمجرد الطيران بقدر ما للانسان من عضلات فى أرجله أكثر من حاجته للوقوف مجرد الوقوف ، وكان اعتقاد « ليوناردو » أن أقدام الانسان أقوى ضعفين مما تدعو الحاجة ، وكان يعتقد أن الزيادة فى القوة انما هى من أجل المجهود الزائد •• ان الطائر لا بد له من أن يحمل الطعام ويطارد الحشرات والحيوانات الصغيرة وكذلك الانسان يجب أن يعمل ويحمل أثقالا • وقد حسب ليوناردو أن الأجنحة فى آلته الطائرة ينبغى أن يكون عرضها ستين قدما •

قادته جميع دراساته لسلوك التيارات الهوائية ، وتصرفات الطير فى الجو ، فى نهاية الأمر الى مبدأ التحليق • فقد تحقق من أن طائرته لا بد أن ترتفع عاليا لتكون أكثر أمنا وسلاما ، فالطيور الكبيرة تطير عاليا من أجل هذا السبب •

بكل ما فى رأسه من هذه المعلومات ، شرع « ليوناردو » يصنع الطائر العظيم • بنى الأجنحة على غرار أجنحة الخفاش مستخدما حبالا من الحرير ونوعا قويا من القماش مع الجلد • وكان جسم الطائر العظيم يمثل

قاعدة على شكل قارب ، ولم يكن الطيار فى هـــذه المرة محتما عليه أن يربط نفسه بل قرر «ليوناردو» أنه ينبغى أن يكون حرا طليقا من الحزام حتى يمكنه التحرك لنقل مركز الجاذبية عند الضرورة • أصبح كل شىء معدا لتجربة الطيران •

فى ربيع ذلك العام •• عام ١٥٠٦ كان ليوناردو يقضى أجازته فى « فيسول » ضاحية فلورنسا الجميلة • قرر ان يقوم بتجربه الطيران من جبل قريب من منزله هناك • وكانت لهذا الجبل ويدعى جبل البجعة رأس منحدرة • وقد كتب « ليوناردو » فى مذكراته يقول « من الجبـل الذى يحمل اسم الطائر العظيم سوف يقلع الطائر المشهور طائرا ويملأ الدنيـا بشهرته العظيمة » •

وكتب « ليوناردو » فى صـفحة أخرى يقول سوف يقـوم الطائر العظيم بطيرانه الأول على ظهر بجعته العظيمة فيملأ العالم بالدهشة ، ويملأ سجلات التاريخ بالشهرة جالبا المجد الخالد الى مسقط رأسه ••

وكانت هناك اشاعة أنه ذات يوم رأى بعض أهالى « فيسول » طائرا عظيما يحلق من فوق جبل البجعة ثم يختفى • واذا كان « ليوناردو » قد نجح حقيقة فى التحليق بطائرته قليلا لكان قد سقط وتحطمت ماكينتـه وأنه لا بد قد أنقذ بأعجوبة والا لكان العالم قد سمع باصابته ، ومهما يكن من أمر ما حدث « فليوناردو » لم يذكر عنه شيئا ، ولم يعد يكتب عن الطائر العظيم فى مذكراته • كانت التجربة اخفاقا دونه أى اخفاق •

بهاتين الكارثتين وبعداء «ميكل انجلو» الذى يزعجه، قرر «ليوناردو» أنه لم يعد يطيب له العيش فى فلورنسا • لقد سبق له اتخاذ مثل هـذا القرار وذهب الى « ميلان » وفى هذه المرة كان للشىء نفسه أن يتم •

بعد أن تحطمت لوحة الأفرسك التى صنعها للهيئة الحاكمة ، وافتـه دعوة من ميلان لزيارة « تشارلس دامبواز » النبيل الفرنسى ونائب ملك

فرنسا فى «ميلان» وما كان ليهمل الفرصة التى سنحت له ليغير الجو والمناظر وليرى ما صارت اليه أملاكه التى طال اهماله لها ، وقبل الدعوة.

لم يكن من السهل أن يخرج من « فلورنسا » فقد ذكرته الهيئة الحاكمة أنه لم يصلح بعد ما فسد من لوحة الأفرسك المحطمة فى غرفة المجلس ، وهو قد أخذ مبلغا مقدما نظير اللوحة وجعلهم ينتظرون طويلا من أجلها ثم أفسدها بعد ذلك ، وهو الآن يبغى الفرار • كانوا غاضبين ولا يقوى أحد على لومهم ، الا أنه ما من شخص يمكنه أن يشفق عليهم كذلك • فعلى طول المسألة كان ينبغى أن يعاملوا أحسن رساميهم بطريقة أفضل ••

مهما يكن من الأمر فان رئيس الهيئة الحاكمة فى فلورنسا لم يجرؤ على منع ليوناردو من الذهاب فان دعوة « تشارلس دامبواز » كانت أقرب ما تكون الى دعوة من ملك فرنسا نفسه ، الذى كان تحت وصايته جزء كبير من ايطاليا فى ذلك الوقت • سمح «لليوناردو» بالذهاب ولكن بعد أن وقع اتفاقا بالعودة خلال ثلاثة أشهر ، كذلك كان عليه أن يترك تأمينا عبارة عن مبلغ كبير من المال هو فى الواقع كل ما يملك ، ونص الاتفاق على أنه لا يمكن استرداد المبلغ مالم يطالب به شخصيا ، ثم دعته الهيئة وشأنه فأسرع رأسا الى « ميلان » •

كان نائب الملك فى ميلان شابا ولكن كان له عقل لم يتوافر لأحد من أولى الرأى والأهمية فى فلورنسا • فقدر « ليوناردو » لعبقريته فى حد ذاتها •

وقد أثار « تشارلس دامبواز » ضجة كبرى حول الرسام • وأصر على أنه شرف كبير له أن يستضيف هذا الرجل ويكرمه • وقد طاب لنفس « ليوناردو » وبعث فى قلبه الغبطة أكثر من كل ما عداه أن هذا النبيل الفرنسى الشاب لم يبد أنه ينتظر أن يكون رسام لوحات صغيرة وقديسين• وكانت للنبيل الفرنسى أفكار معمارية شائقة • وقد كتب الى رئيس الهيئة

الحاكمة فى فلورنسا • يقول له ان هـــذا الرسام لم يلق التقـدير الذى تستحقه عبقريته المتعددة الجوانب •

وكان الوقت قد حان تماما لأن يقال هذا لأهل فلورنسا ، ولعله كان يسعد « ليوناردو » أن يظل الى جانب الرجل الذى فهمه جيدا طول عمره• وعندما انسلخت الأشهر الثلاثة كان « ليوناردو » غارقا فى المشروعات المتعلقة ببناء القصور وتجفيف النهيرات • لم يشعر « ليوناردو » بالرضا كما شعر به الآن ، وبدا له أنه من المستحيل أن يذهب هكذا بسرعة •

وعندما سأل الهيئة الحاكمة لامتداد المهلة ثلاثة أشـهر أخرى جاء الرد حادا لا يبعث على السرور ، وفيه : ان « ليوناردو » لم يتصرف كما ينبغى حيال جمهورية فلورنسا لأنه أخذ مبلغا طيبا من المال ولم يزد على أنه قد بدأ العمل فى مشروع مهم كان عليه أن يتمه » •

وأضاف الخطاب أشياء أخرى عدة فى لهجة قاسية حازمة ثم اختتم الخطاب بقول الهيئة الحاكمة : اننا نرغب ألا يعاد الرجاء مستقبلا اذ أن عمل هذا المشروع كان من أجل المجتمع ، ونحن لا يمكننا أن نســمح بالتأخير أكثر من ذلك ، والا نكون غير مؤدين لواجبنا » •

رد « تشارلس دامبواز » على خطاب الهيئة الحاكمة فى فلورنسا بأدب فيه كثير من التملق معيدا رجاءه بصورة أكثر جدية• ورفض الفلورنسيون ولم يكن فى النهاية بدا من أن تتم تسوية هذا الأمر عن طـــريق الملك لويس الثانى عشر الذى ناشده « تشارلس دامبواز » فى الموضوع •

كان لويس الثانى عشر لا يزال فى فرنسا اذ ذاك ولكنه كان قـد عزم المجىء الى ايطاليا فى وقت قريب وقد تحدث الملك الى سفير فلورنسا لديه فى الموضوع صراحة •• « لقد حان الوقت الذى تؤدى فيـه هيئـة الحكم فى فلورنسا جميلا لى ، مشيرا الى شىء كان قد صنعه منذ حين من أجل فلورنســا ــ اكتب اليهم أننى أرغب فى الافادة من خـدمات السيد

« ليوناردو » الرسام وهو في «ميلان» الآن وانني أرغب في الحصــول على بعض أعماله وانني أرى أن تخوله الهيئة الحاكمة دخول خدمتي في الحال على أن يبقى في ميلان الى أن أصل اليها •• اكتب الى فلورنسا بطـريقة مؤثرة وافعل ذلك حالا ودعني أرى الخطاب » •

دهش السفير الفلورنسي أن يثير الملك مثل هذه الضجة حول مجرد واحد من فناني بلده المحليين ، ولكنه كتب الخطاب الى الادارة بما يقتضيه واجبه وكما طلب اليه الملك أن يفعل • وقد شرح هـــذه النزوة الملكية الغريبة بقوله « لقد حدث كل هذا نتيجة للوحة صغيرة أحضرت أخيرا الى هنا ، وتعتبر عملا جديرا بالاعجاب » •

كتب الملك بنفسه الى الهيئــة الحاكمة « •• وفور اســتلامكم هذه الرسائل اكتبوا اليه ألا يغادر ميلان حتى وصولنا » •

هكذا كان العام الذي بدأ بالكوارث انتهى بالسعادة . عاد الى ميلان حيث كان قد أمضى ستة عشر عاما من عمره ، رجع الى نفس القلعة التي خدم فيها من قبل كرسام للبلاط مهمل الأمر لايتقاضى من أجره مايستحق• عاد في ظروف لم يحلم بها من قبل • انه الآن موضع تكريم واعــزاز ، الأمراء يتنازعون من أجــل خدماته وهــو حر في أن يســتغرق في كل الأحلام التي يهواها ، أحلام اليقظة التي أقلقت بال زملائه الفلورنسيين • ان راعيه الكريم شجعه في كل الأمور التي من أجلها ــ حتى ذلك الوقت ــ كان موضع السخرية والاستهزاء • وبدأ « ليوناردو » يحب ميلان •

« عنهم وثن »

لم يحدد « لويس الثانى عشر » تاريخا معينا لوصوله الى ميلان عند كتابة خطابه ، وقد ذكر ذلك مساعدة « لتشارلى » و » ليوناردو » فحسب. وعلى نحو ما تطورت الأمور كان لا بد من حضوره عبر الجبال فقد كانت ولاية «جنوه» تحت الحكم الفرنسى ولكن أهلها كانوا فى ذلك الوقت يحاولون أن يتحدوا الملك • ومن ثم فقد أعد « لويس الثانى عشر » جيشا جرارا مثل ذلك الجيش الذى أعده سلفه « تشارلس الثامن » وزحف الى «جنوه» •

لم تكن هناك معركة فقد استسلم أهل «جنوه» بمجرد رؤية هذه الألوف المؤلفة من الجند وقد تسلحوا من قمة الرأس الى أخمص القدم. واحتل الفرنسيون المدينة دون قتال • ثم سار « لويس « الى « ميلان » ليقوم بزيارة حليفه ويمضى شهورا قليلة • دخل « ميلان » فى مايو عام ١٥٠٧ وطبيعى أن تقام ولائم الاستضافة والاحتفالات تكريما لقدومه • ولا بد أن الآمر بدا «لليوناردو» على نحو ما كان فى سابق زمنه حيث قدم ألوانا خاصة من التسلية والاستمتاع أيام « لوديفيكو » ، ولكنه كان أكبر استمتاعا فى البلاط الفرنسى مما كان مع عشيرة « سفورزا » فقد فهمه الفرنسيون وأعلوا قدره ولم يبقوه جانبا طوع ارادتهم ورهن اشارتهم كما فعل به « لوديفيكو » •

كان « ليوناردو » دائم التذكر لسالف الزمن فقد كانت الوجوه التى تضمها حفلات الرقص والمسرحيات مألوفة لديه ، ذلك أن نبلاء الشمال

الايطالى وأشرافه قد تقبلوا أوضاع الأمور الجديدة وسايروها وكانت القلعة تبدو كما لو أن الفرنسيين يحتلونها دائما •

كان من بين الضيوف واحدة يحق لها أن تشكو من نسيان «ليوناردو» لها نسيانا تاما • تلك هى « ايزابيلا ديست » التى كانت تستمتع بالمناسبات الاجتماعية وتحضر الحفلات • وربما تأثر « ليوناردو » كثيرا بحضورها ، اذ لم تكف عن الكلام معه طالبة متوسلة تلك الصورة •

أصبح الآن وهو فى جناح البيت الملكى فى فرنسا يملك العذر الكافى بأنه مشغول • كان يقوم برسم للملك ، وكان يصمم قصرا « لتشارلس دامبواز » ، كان لديه من العمل مايكفى شهورا قادمة ، بل سنوات • ولم يكن « لايزابيلا » أن تحاول الادعاء بأنها أكثر أهمية من هؤلاء الناس • وعلى أية حال فقد كانت تملك عددا من الأسود تشغل وقتها وتملأ قلبها بالسعادة •

تحقق « ليوناردو » من شهور قليلة أنه أصبح محبوبا جدا ، مما أدخل السرور فى قلبه والثقة بنفسه وبمستقبله وقرر أن يقطع صلته بفلورنسا عن طريق تسوية نزاعه مع الهيئة الحاكمة • ومن ثم فقد بعث اليهم يقول : ان التأمين الذى تركه فى حوزتهم وكل نقود عداه يملكها فى المدينة ملك لهم • كان فى هذا تسوية للمبلغ الذى دفعوه مقدما للوحة معركة « انجيارا » • أصبح بذلك « ليوناردو » حرا فى ألا يعود ما لم يرد العودة • أصبح حرا طليقا من قيد العودة الى العمل فى اللوحة التى جلبت عليه الخزى والمتاعب • كما أصبح مستريح الضمير ، والفضل فى كل ذلك يرجع الى حاكم « ميلان » •

اصبح فى مقدوره أيضا قبول تلاميذ على نحو ما يليق بأستاذ • كانت أموره الخاصة لا تزال بسيطة على عادتها فالخادم « سالاى » الذى كان عبئا عليه اقتضى سنوات للتخلص منه وخلف مكانه امرأة عجوز تقوم بخدمة البيت وترعى شئونه •

عندما بدأ فى قبول تلاميذ جدد ، وجد مساعدا حقيقيا فى شخص «فرانسسكو ملزى» • كان ملزى شابا من عائلة عريقة تقيم فى «ميلان»• كان يريد تعلم الرسم من حيث هو فن ينبغى للمرء أن يجيده لا من حيث هو عمل يكتسب منه عيشه • كان له شىء من الموهبة • وكلما زاد فهم «اورنادو» له ، وكلما زاد فهمه لأستاذه عقد العزم على البقاء مع الرسام ، •• كان ملزى يقـوم برعاية « ليوناردو » أفضـل بكثير مما كان يفعـل « سالاى » الأنانى • كان مخلصا ، وكان عنصرا هاما فى راحة «ليوناردو» متخذا مكان ولد وفى للرجل الوحيد •

مضت ثلاث سنوات ونصف سنة على « ليوناردو » فى « ميلان » • كان سعيدا فيها وكان مشـغولا • ينفق وقتـه فى التصـميمات المعمارية وتخطيط المدن • يدرس من العلوم ما يشاء • ويدير يده وعقله بين الحين والحين الى تلك المبتكرات التى كان « تشارلس دامبواز » يريدها لحفلاته • وفى احدى حفلات الرقص جعل السقف الأزرق الذى مثل السماء تجوب الطيور فى أرجائه فوق رءوس الراقصين •• كانت طيورا صناعية معلقة خلال السقف •

قرر « ليوناردو » فى ذلك الوقت أن يزور فلورنسا • انك تذكر أن أباه لم يترك له شيئا فى وصيته ، وأن عمه « فرانسسكو » لكى يعوضه عن هذا الاغفال جعله الوريث الوحيد له •

مات فرانسسكو الآن •• وكان اخوة « ليوناردو » الجشعون ينازعونه ثروة عمهم • أصروا على أن تكون لهم الأملاك ، وأن «ليوناردو» ليس له حق فيها ، وربما ظنوا أن مشاغله فى « ميلان » مع معارفه الكبار سـوف تمنعه من منازعتهم فى شأن الوصية •

كان «ليوناردو» غاضبا ، ورد على ماكانوا يحاولون فعله برفع دعوى جديدة ضد وصية ابيه مطالبا بحقه فى الميراث •• وكان عليه لزاما لهذا ان يكون فى فلورنسا وان يتابع القضية •

كانت القضايا فى ايطاليا تستغرق شهورا وشهورا • واذا لم يكن لديك سند قوى فأغلب الظن أنها ستطول وتطول ، ومن ثم فقد أعد « ليوناردو » عدته للعمل السريع وللنجاح السريع أيضا ، بأن يأخذ معه خطابات توصية من ذوى الأهمية ، بقدر ما يستطيع •

كتب لويس الثانى عشر بنفسه الى الهيئة الحاكمة فى فلورنسا قائلا : « ان عزيزنا ومحبوبنا « ليوناردو دافنشى » رسامنا ومهندسنا قد اضطر للحضور الى فلورنسا من أجل التقاضى بشأن ميراث معين ، ولأن الملك يحتاج الى عودته سريعا فانه يرجو الهيئة الاسراع فى نظر الأمر وانهاء الموضوع فى أحسن صورة وأقصرها » كان هـذا الخطاب عظيم الفائدة ولعله قد أثلج صدر « ليوناردو » أن يسبغ عليه الملك لقب المهندس فما كان يأمل فى لقب أحسن منه • أحضر « ليوناردو » معه خطابا آخر من « تشارلس دامبواز » يؤكد فيه رغبة الملك فى أن يعود الرسام سريعا لأنه يعمل فى لوحة خاصة بالملك •

استكتب « ليوناردو » أيضا أصدقاءه من ذوى المكانة خطابات الى الهيئة الحاكمة فى فلورنسا للاسراع فى اجراءات قضيته • وذهب هو بنفسه مع ذلك كله ، الى فلورنسا • ذهب هذه المرة لا فى صورة رجل يبحث عن عمل ، وانما فى صورة شخصية كبيرة فى عجلة من أمره • سار الأمر على نحو ما كان يبغى فقد وجد الأشخاص الذين يمكنهم معالجة موضوعه ، وقدم مستنداته ، وأوضح قضيته ، ولكنه برغم كل هذا فقد كان يعلم أن الموضوع سيطول ، فالشئون القضائية لا تسوى فى يوم وليلة حتى بالنسبة للعظماء •

رتب أمره على قضاء الوقت الذى لا بد له من قضائه فى فلورنسا مع أحد أصدقائه القدماء ، كان هذا الصديق ويدعى « رسيتس » يصغره بعدة أعوام ، وكانت معرفته به قديمة منذ كان يتلقى تدريبه فى مرسم « فيوليتشيو » •

كان « رسيتس » نحاتا ورساما محترفا • كان له ايراد خاص فلم يكن يعتمد كلية على الرسم والنحت • لم يكن رساما هاويا ، بل كان يستطيع أداء عمل بصورة طيبة ، وعندما يكون لديه عمل فانه يكون مشوقا ومتلهفا لاخراجه على أكمل صورة • وكان يحاول دائما أن يتتبع خطى « ليوناردو » وأن يسير فى طريقه •

كان للرجلين الكثير من الاهتمامات المشتركة ، فقد كان «دسيتس» مغرما بالمعرفة والاكتشاف في دنيا الهواء والماء والطيران •• وهكذا • ولم يكن « دسيتس » يلتزم بالأمور التقليدية المألوفة • كان مولعا باقتناء الحيوانات الغريبة التى تجرى فى البيت كما تشاء ، وكان هناك نسر يطير (مروّض) يطير عبر الحجرات ويثير الفزع بين الزوار الغرباء ، كما كان هناك أيضا ببغاء طليق يطير حرا فى البيت • كان «رسيتس» على رأس جماعة من الشبان ينظرون الى الأمور نظرة جديدة ، ويتسابقون فى التفوق فيما هو غريب وشاذ •

وفى الوقت الذى وصل فيه « ليوناردو » الى فلورنسا كان مضيفه قد حصل على أهم عمل عهد به اليه فقد كلف بعمل مجموعات لتوضع فوق أبواب الكنيسة بدلا من المجموعات المرمرية التى تكسرت وذهبت أدراج الرياح بعد أن ظلت على الأبواب سنوات عدة • وقد صمم«رسيتس» نماذج عدة رائعة لهذا الغرض •

ينطوى صنع المجموعات على مشاكل فنية متعددة • وقد وجد المضيف فى صديقه « ليوناردو » عونا كريما على حلها • ولا حاجة بنا الى القول أن بعض النحاتين الفلورنسيين انتقدوا « رسيتس » فى طلبه العون من «ليوناردو» لغيرتهم وحسدهم • كانوا يعيبون عليه استغلال ضيفه المشهور• ولم يكن « رسيتس » أو « ليوناردو » يعبآن بهذه الثرثرة السيئة النية •

استمتع « ليوناردو » بالاقامة فى بيت « رسيتس » كان المضيف

الشاب يتمتع بالحيوية والجاذبية وكذلك كان أصدقاؤه • وكانوا يحاولون أن يتفوقوا بعضهم على بعض في الحيل الميكانيكية والألاعيب العلمية • كانوا يقيمون مآدب الغذاء ويأمر بعضهم بعضا بالاتيان بحيل جديدة مناسبة •

وذات مساء وهم جالسون على المائدة في بيت « رسيتس » برزت من أرض الغرفة شجرة تحمل على فروعها الأطباق وفي أغصانها الأطعمة ودارت فوق المائدة تقدم لكل ضيف حاجته من الطعام ، ثم اختفت في أرض الغرفة لتعود مرة ثانية محملة بكمية جديدة من أصناف الطعام وبأطباق أكثر باضطراد •• وهكذا • كان مجرد الاختراع الذي لا ضرر منه باعثا للسرور في نفس « ليوناردو » •

في هذا الجو من المودة والصداقة عمل « ليوناردو » عملا متصلا في اختراع آلات جديدة من كل نوع • ورأى أن الوقت قد حان ليعيد ترتيب أوراقه ويتركها في صورة منسقة للأجيال من بعده • وفي الوقت الذي كان يبدأ فيه الكتابة في عدد كبير من الكتب والرسائل لم يكن ليفرغ من واحدة منها ، وهو في واقع الأمر لم يرد أن ينتهي من الأشياء التي يبدأها عند نقطة معينة فهو يبقي الكتاب مفتوحا ليتصيد الأفكار التي يريد أن يضمنها هذا الكتاب •

كان لديه في بيت « رسيتس » فراغ كاف ولكنه لم يرد أن يطبع كتبه آن ذاك ، وعلى عادته وضع خططه للنشر فيما بعد ، وكتب نبذة لقارئيه في المستقبل يقول فيها : « يرجع البدء الى اليوم الثاني والعشرين من مارس عام ١٥٠٨ ، وهي مجموعة بلا ترتيب أخذت من أوراق عدة ، نسختها هنا آملا في تبويبها فيما بعد كل في مكانها تبعا للموضوع الذي تعالجه •

شرع « ليوناردو » يصمم نوعا جديدا من آلات الطباعة ، فاخترع تحسينات كثيرة أدخلها على الآلة المستخدمة في القرن السابق وكما نتوقع

قرر « ليوناردو » تأجيل طبع مؤلفاته فالكثير منها ينتظر الاضافة • وبدلا من هذا عاد « ليوناردو » الى هوايته القديمة •• التشريح •

لم يكن تشريح جسد الانسان صدمة للشعور الانسانى فى العالم الذى عاش فيه « ليوناردو » ، فقبل ذلك بسنوات كان الشعور ضد التشريح وعدم الرضا عنيفا ، ولكن فى أثناء النهضة عندما كان الجميع يتطلعون الى العلم والمعرفة فقد المعترضون مركزهم وأصبح تشريح الموتى عملا مقبولا •

عندما شنق أحد المجرمين قبل ذلك بثلاث سنوات، أذن لبعض مشاهير أساتذة التشريح باجراء عملهم أمام الجمهور وألقى أحدهم محاضرة عن التشريح ، قوله انه من الأسهل والأضمن أن يرسم الانسان مايريد وصفه التشريح فى الوقت الذى كان يقوم زملاؤه بتقطيع الجسم وكان مسموحا بحضور من يريد الحضور• وطبيعى أنه من كان يريد ذلك لم يكن الا قلة نادرة من الناس الذين يهتمون بالتشريح ويستطيعون مواجهة فظاعة الموقف • أما عن الفنانين أمثال « ليوناردو » و « ميكل انجلو » فقد كان الناس يدركون أن عليهم دراسة الأجسام حتى يمكنهم رسم العظام والعضلات رسما دقيقا •

قام « ليوناردو » من قبل بتشريح عدد من الأجسام ولكنه الآن بدأ يتوسع فى التشريح فرتب أمره مع بعض المستشفيات ليستفيد من الأجسام التى لا يطلبها ذووها بعد وفاة أصحابها • ومن الملاحظات الدقيقة التى دونها « ليوناردو » فى هذا الشأن يستطيع أطباء اليوم معرفة الأمراض التى كانت تؤدى الى وفاة الناس فى ذلك العصر • فهذا رجل عجوز ذهب ضحية انسداد الشرايين وذلك مريض يموت بالسل •

لم تتوافر للناس جميعا الأعصاب التى توافرت « لليوناردو » ليواجه بها هذا النوع من البحث ويواصله • لم تكن هناك ثلاجات ولا وسائل لحفظ الجثث وغالبا ما كان « ليوناردو » مضطرا لمواصلة العمل ليلا ونهارا

حتى ينتهى من التشريح قبل تعفن الجثة • وهو يحذر الناس فى مذكراته بأن التشريح عمل صعب وشاق تتقزز منه النفس •

ومن أحسن ما ذكره « ليوناردو » فيما يتعلق بأهمية الرسم لتوضيح التشريح قوله ان من الأسهل والأضمن أن يرسم الانسان مايريد وصفه لا أن يعتمد كلية على الوصف بالكلمات • وهذه حقيقة جلية فلا يستطيع اليوم طلبة الطب أن يحصلوا نصف ما يحصلونه فى علم التشريح لو أن كتبهم كانت خالية من الرسوم التى توضح وتبين ما يتعلمونه •

استخدم «ليوناردو» الرسوم محل الكلمات فى دراساته التشريحية ، ونراه يكتب « لكى أقدم المعلومات الكاملة عن الشكل الحقيقى لأى جزء من أجزاء الجسم فلا بد أن أرسم أربعة أوضاع تمثل الجوانب الأربعة لهذا الجزء ، أما فى حالة العظام فسأرسم خمسة أوضاع مقطعها المركز •

كانت رسومه من الدقة بحيث أمكن استخدامها فى كتب الطب فى أيامنا هذه • وقد اكتشف برسمه كل هذه الرسوم الكثيرة عن الجسم الانسانى الذى لم يكن معروفا قبله ، فقد رسم العمود الفقرى بطريقة توضح كيفية ملاءمته الوظيفية ، كما لاحظ طريقة تحرك الضلوع مع التنفس • وقام بدراسة قيمة للجمجمة ، كما رسم عشرين رسما تشريحيا ليد الانسان •

سجل « ليوناردو » دراساته الشاملة للعضلات وعندما جاء الى عمل القلب نجد أنه قد اقترب كثيرا مما اكتشف فى القرون التى بعده فهو يقول : « القلب وعاء تشكله عضلات قوية تعتمد فى حياتها وتغذيتها على الشرايين والأوردة كما تفعل العضلات الأخرى » ويكتب عنه أيضا فيقول « ان القلب هو النواة التى تبعث بشجرة العروق للوجود » وكثير من قوانين الطبيعة التى اكتشفها « ليوناردو » لم توضع من قبل موضع الدراسة •• ونحن لا نستطيع التوقف عن الاعجاب بقوة « ليوناردو » الخارقة فى الملاحظة والمراقبة » •

ينبغى أن نذكر دائما أن « ليوناردو » قد قام بأشياء عدة ، فما كان بالرجل الذى يتفرغ لموضوع واحد كالتشريح أو الطبيعيات أو كيماوية الطلاء ويعمل فيها سنوات حتى يستخرج من دراسته كل ما يريد ، وانما كانت عادته أن يرجع الى الشىء بين الحين والآخر على نحو ما كان يفعل بآلته الطائرة عاما بعد عام وهو ينصرف عن شىء ليدرس شيئا آخر ، الا أنه كان دائما يملك القدرة على الرجوع الى دراسة موضوع كان قد تخلى عنه وهجره • بهذه الطريقة وهذا الأسلوب وفى مدى حياة حافلة وصل « ليوناردو » الى معارف ومعلومات قطع غيره من البشر أجيالا فى سبيل الوصول اليها •

ألف « ليوناردو » كتابا فى التشريح عنوانه « حركات الحيوانات ذوات الأربع » ومن بينها الانسان الذى يحبو وهو طفل على أربع • وقام بتشريح دب وقرد ليرى مدى الفروق التى بين قدم الدب أو القرد وبين قدم الانسان (فقدم الدب كما تعلم تشبه قدم الانسان) •

أحضر « ليوناردو » أسدا حديث الوفاة من حديقة الحيوانات فى « فلورنسا » ولاحظ بتشريح الأسد أن حاسة النظر وحاسة الشم أقوى فى الحيوان منها فى الانسان • وأن أعصاب الابصار فى جمجمة الأسد تفوق زميلتها فى جمجمة الانسان وأن لحاسة الشم فى رأس الأسد مكانا أكبر مما فى رأس الانسان •

كان يضايقه فى كثير من الأحيان ألا يجد الفرصة لتدوين كل هذه الملاحظات وقد اعتذر فى هذه الدراسات بقوله : « لم يمنعنى شح أو ضن أو اهمال ، ولكن الذى منعنى قلة الوقت » ولكن برغم ذلك فانظر كم أنجز « ليوناردو » من أعمال •

وكما هو منتظر ومتوقع أخذ « ليوناردو » يفكر كثيرا فى سر الحياة ذاتها • كان يذهب الى المذبح ليرقب نحر الحيوانات • كان يعجب ويتساءل

« ترى أين تقيم ومضة الحياة فى الجسم •• ؛ أين يكون محركها الرئيسى ؟ •• لم هى حية وبعد لحظة أخرى ميتة ؟ •• بعض الاصابات قاتلة مميتة وبعضها يصيب الجسم ثم يصح ويبرأ •• » ولا حاجة بنا الى القول ان « ليوناردو » لم يجد جوابا لأسئلته يشفى غليله •

كان « ليوناردو » يعقد المقارنات بين جسم الانسان وأجسام الحيوانات المختلفة نتيجة لعمليات التشريح التى يقوم بها • وقد دفعه ذلك الى اكبار الانسان واكبار الحياة • فهو يرى أن جسم الانسان بجماله ودهائه اعجاز عظيم لأحسن آلة يمكن صناعتها • وقد وصل فى النهاية الى نتيجة تعد غاية فى التقدم بقوله ان تدمير الحياة بلاهة وشر وغباء •

وقد كتب « ليوناردو » يقول : « لا تدع غضبك وحقدك يحطم الحياة فمن يقوّم الحياة ويقدرها لايستحق أن يعيشها » وبعد هذا الوقت كف « ليوناردو » بقية عمره عن اختراع أسلحة وآلات التدمير والقتال •

أصبح باديا فى فلورنسا أن قضية « ليوناردو » تقترب من الانتهاء وبدأ يعد العدة للرجوع الى « ميلان » • وكان صبر « تشارلس دامبواز » قد بدأ ينفد • وقد كتب اليه « ليوناردو » يهدىء من روعه قائلا : « اننى دائم الشعور بأن ما فعلته قليل اذا ما قورن بفيض كرمكم وجليل عطفكم •• وقد تلقيت من سعادتكم ما قد يجعلكم غاضبون منى •• وأضاف « ليوناردو » بأنه سيعود فى عيد الفصح •

كانت هناك أشياء عدة تحتاج الى الاعداد والترتيب •• كان الملك قد وعده براتب ثابت • وهو يسأل الآن : هل بدأ وصول الراتب • لقد قصد هذه المرة أن يستقل عن « تشارلس دامبواز » فى ميلان ، انه يريد أن يعيش بمفرده ، وان كان سيظل الحاكم بالطبع وليه وراعيه •

عندما عاد الى ميلان لم يجد قلة فى اقبال التلاميذ عليه بل تدفق عليه عدد كبير منهم • ولم يعد « سالاى » فى قائمة من يعاونهم «ليوناردو»

بالمال فقد استقل كرسام لبعض أنواع الفن وان لم يكن مجيدا فى فنـه بالقدر الذى كان ينتظر منه بعد هـذه السنين الطويلة من الدراسـة مع « ليوناردو » •

ومع ذلك فقد ظل مصدر ضيق وعبء انفاق على « ليوناردو » فقد سكن والده فى كرمة « ليوناردو » التى منحها اياه « لوديفيكو » فى أواخر أيام حكمه • وظل « سالاى » يحتاج الى المال فنرى « ليوناردو » يسجل فى مذكراته « فى أكتوبر عام ١٥٠٨ تسلمت ثلاثين قطعة ذهبية، أقرضت « سالاى » منها ثلاث عشرة قطعة ليشارك فى مهر أخته •• وبقيت معى سبع عشرة قطعة » •

كان الراتب الملكى يأتيه بانتظام • ولم يعد هناك ما يضايقه فى أمر معيشته •

بدت « ميلان » عطوفا عليه ، فقد كلف بمهمة فنية كان ينبغى أن تجعله ينسى خيبة الامل التى أصابته فى حصانه البرونزى ، وهاهو الآن يطلبه رجل آخر ليصنع له تمثال جواد ، فقد قرر قائد الجيش فى «شومو» ويدعى «تريفولزيو» أن يجهز قبره بكل شىء وهو على قيد الحياة، فطلب من « ليوناردو » أن ينحت له تمثالا وهو على صهوة جواده بالحجم الطبيعى •• لم يكن هذا التمثال شـيئا بالقياس الى التمثال العملاق الذى طلبه « لوديفيكو » ، ولكن الفكرة فى حد ذاتها كانت رائعة وخاصة أن الرجل قد طلب من الفنان أن يضع تصميما كاملا للمقبرة • وأخذ « ليوناردو » مرة أخرى يدرس الخيل فى سعادة ويضع الاسكتشات • كانت مشكلة الناحية الخلْقية من التمثال وقاعدته مشكلة معقـدة ولكن ذلك ما كان يجيده « ليوناردو » لأنه عمل هندسى •

لم يكن يقنع اهتمامه موضوع واحد ، فقد أولى اهتمامه الى رسالته فى الماء ، وقاده هذا البحث الى استمرار التفكير فى الهيدروليكيات • وأراد أن يكون لبحثه فائدة فأخذ يعمل فى تحسين نظام الرى فى قناة لومباردى، •• درس ميكانيكية اقفال القنوات وفكر فى طريقة ناجحة لتخزين مياه النهر التى تفيض وراء « ميلان » ، كما فكر فى طريقة جديدة لتجفيف المستنقعات •

اتجـه من هـذا البحث الى دراسة سلوك الماء فى الزوابع المائيـة والدوامات وحركة الهواء المحبوس تحت الماء • ومن ثم ذهب الى ملاحظة الدوامات الهوائية والسيكلونات الصغيرة والزوابع العنيفة • وقد رأى أن

الماء تحكم سلوكه القوانين التى تحكم الهواء • وكتب عن ذلك يقول : « لقد رأيت حركات الهواء من الشدة والعنف بحيث حملت وهى تزمجر فى طريقها أكبر الاشجار فى الغابة وسقوفا كاملة لقصور شاهقة ' ولقد رأيت ثورة الهواء وهى تحدث ثقبا فى الأرض بحركة لولبية فتحفر منجما من الزلط وتحمل الزلط والرمل والماء أكثر من نصف ميل فى الجو » •

كانت أياما حافلة سعيدة لرجل متعته الحقة دراسة من هذا النوع ، ولم يكن هناك من يدفعه الى العمل دفعا ، ولم يكن عليه أن يعمل عملا شاقا فى الرسوم عندما كانت تبدو مبعث سأم وملل لنفسه ، وأصبح يستطيع شراء ما تحتاجه تجاربه من خامات فقد كان أولياؤه أذكياء يتهمون بما يهتم به من أشياء •

انه لمما يدعو الى الغبطة حقا أن نجد « ليوناردو » فى ذلك الوقت وقد استغرق فى كتاباته وأفكاره فهو يقطع العمل فى المرسم ليرقب نهرا فى فيضانه أو سماء ليل صافية تتلألأ بالنجوم • كان فى السابعة والخمسين من عمره ، وفى ذلك الوقت رسمه أحد الفنانين ويبدو فى الصورة أكبر من عمره الا أنه تبدو عليه سمات اليقظة والفكر •

سارت الأيام رغدة طيبة ولكنها لا يمكن أن تظل على ما هى عليه ، فالحياة الايطالية فى القرن السادس عشر لم يكن يسودها السلام سنوات طويلة متصلة • وفى بواكير عام ١٥٠٩ عاد لويس الثانى عشر الى الحرب من جديد ، فركب على رأس جيش جرار يريد البندقية • وكانت جيوش البندقية فى طريقها الى « ميلان » •• وخرج جند الملك ومعهم الميلانيون متشوقين الى لقاء أعدائهم فى الميدان • وذهب « ليوناردو » معهم بوصفه المهندس الحربى للملك •

أصابت حملة الملك النجاح • وعندما عادت الجيوش الى ميلان كان « ليوناردو » قد ملأ كراسة كاملة باسكتشات سريعة للمناظر الطبيعية التى

رآها وللأنهار والبحيرات التى وقعت عليها عيناه •• ، بحث مشكلة المجارى فى القصور • وقد عقد « ليوناردو » صداقة مع « جين بيريل » رسام بلاط الملك لويس ، وهو مثله فى الأخذ من كل علم وفن بطرف ، ومن ثم أخذ الفنانان يناقشان معا الهندسة والعمارة والرياضيات والفلك •

صنع « ليوناردو » أسدا ميكانيكيا بمناسبة احدى الحفلات التى أقيمت احتفالا بعودة الجيش الى « ميلان » • وكان على الأسد الميكانيكى أن يقوم بمطاردة مارد ميكانيكى ويخرجه من البحر ويقع شجار بين المارد وبين ديك ـ رمز فرنسا ـ وينتهى الشجار بأن يفقأ الأسد عين المارد •

عاد « ليوناردو » الى دراساته راضيا ، فخلال الشتاء بطوله حتى أوائل الربيع كان يعمل كما يطيب له ، فهو يرسم أحيانا أو يعلم تلاميذه الرسم ، ويعمل فى التشريح الذى عاوده الاهتمام به أحيانا أخرى ، أو هو يدرس النجوم ويرقبها الى أن جاءت الحرب من جديد فى عام ١٥١٠ تقطع عليه هذا الاطمئنان •

كان « البابا » القديم « يوليوس الثانى » قد بدأ يضيق بازدياد نفوذ الملك الفرنسى « لويس الثانى عشر » وقد ساءته هزيمة أهل البندقية على وجه التحديد فلم يكن يلائم أفكاره أن يرى تلك الولاية الايطالية القوية تحت سيطرة ملك فرنسى •

كان البابا صديقا للفرنسيين ، ثم فجأة وبغير سابق انذار تولى قضية البندقية وطلب معونة السويسريين ، ثم ذهب بنفسه الى الحرب برغم أنه شيخ هرم • استطاع أهل البندقية بمساعدة الجيوش البابوية أن يهزموا جند فرنسا فى « كوريجيو » وكان « تشارلس دامبواز » الذى يقود الجيش الفرنسى مريضا فى ذلك الوقت وقد مات بعد المعركة بوقت قصير ، وبذا فقد « ليوناردو » واحدا من صفوة من كانوا له من الأصدقاء •

استعاد الفرنسيون موقفهم الا أن نائب الملك فى « ميلان » ، قتل

في معركة وظل النصر يتناقل من فريق الى فريق ومن يد الى أخرى • وتتابع على حكم ميلان عدد من الحكام كان معظمهم أصدقاء « ليوناردو » وأولياءه ولكن نهايتهم كانت القتل أو الطرد ، هرب « نريفولزيو » الذى كان قد طلب منه الجواد البرونزى لمقبرته عائدا الى فرنسا مع الجيش المتقهقر ولم تشيد المقبرة على الاطلاق •

لم يعد « لويس الثانى عشر » سيد « ميلان » فتوقف المعاش عن « ليوناردو » ولم يعد له دخل يعيش عليه • كان السويسريون يحتلون المدينة أحيانا ، وفى أحيان أخرى يحتلها الألمان •• ثم يجىء الى العرش واحد من « آل سفورنا » مرة ثانية •

لم يستطيع « ليوناردو » أن يساير هذه التغييرات • كانلا يزال يملك البيت وكرمته ولكن ماذا يفعل من أجل عيشه • كان فوق الستين من عمره ولكن لم يعد هناك مفر من أن يبدأ من جديد •

كان الخريف فى عام ١٥١٣ وقد عاد الفرنسيون الى بلادهم وربما كانت المرة الأخيرة فى محاولاتهم لاسترجاع نفوذهم • كان « ليوناردو » قد استقر رأيه على الرحيل ، وفى الرابع والعشرين من سبتمبر شد رحاله مع أسرته الصغيرة من تلاميذه متجها الى روما •

توفى البابا « يوليوس الثانى » وخلفه البابا « ليو العاشر » وهذا من حسن حظ « ليوناردو » فقد كان البابا الجديد من « آل مديتشى » وهو كأفراد عائلته قد يهتم بالرسام التوسكانى الذى حظى بفرصته الاولى عن طريق والد البابا المجيد « لورونزو دى مديتشى » الا أن كلا الرجلين لم يكن يعرف أحدهما الآخر ، وكانت روما بالنسبة « لليوناردو » دنيا جديدة •

استقر « ليوناردو » وتلاميذه فترة فى أحد الفنادق ، ولكنه سرعان ما أحس الراحة عندما وصلته دعوة البابا بالاقامة فى « البلفيدير » • كان « البلفيدير » قصرا صيفيا تملكه الكنيسة • وكان هذا القصر قائما على تل

الفاتيكان ويطل على حديقــة جميلة فى أعلى المنحــدر يصل اليها المرء بدرجات سلم مرمرية • كانت هنالك أيضا حديقة حيوانات البابا الخاصة ، وكان بها ما يحب « ليوناردو » من أسود وقرود وببغاوات وحتى الفيل الأبيض كان موجودا بها • وقد حوت الحديقة مجموعة كبيرة من الأزهار والأعشاب والأشجار • والى جانب ذلك كان القصر يحتوى على مكتبــة نفيسة من الكتب القديمة • وكان « ليوناردو » حرا فى دراسة كل هذه الاشياء وفى استخدامها •

كان للبابا أخ يدعى « جوليانو دى مديتشى » يعيش فى روما • وقد التقى « بليوناردو » فتوثقت بينهما عرى الصداقة بالرغم من فارق السن بينهما فقد كان « جوليانو » شابا فى مقتبل العمر •

كان « جوليانو » رقيقا حاد المزاج وكان فيلســوفا يفضــل الدرس والحياة الهادئة على كل ما عداها • كان الأدب هوايته الأولى وقد كتب الشعر فى صباه ولكن جذبته دراسة السحر والكيمياء التى كانت محور اهتمام جدى لأهل ذاك الزمان فترك قرض الشعر • وكان « ليوناردو » يعد له التحضيرات التى يحتاجها فى تجاربه وينفق الوقت الكثــير فى اعدادها •

كان « جوليانو » لا البابا هو الذى يكفل «لليوناردو» عيشه ، وكان يعطيه بسخاء • لم يكن البــابا شحيحا بخيلا ولكنه لم يكن يهتم بنــوع الأبحاث التى يجريها « ليوناردو » •

استقر العيش بمساعدة « جوليانو » للفنان الكبير فى قصر «البلفيدير» وكان يشغل فى هذا القصر غرفا كانت خالية منذ زمن مضى • وقد رسم « ليوناردو » حياته فى هذا القصر ضمن ما رسم فى مذكراته • رســم السلم والمطبخ والنوافذ والشرفة والأثاث حتى المعمل الذى كان يمارس فيه تجاربه •

وفى هذا المعمل أو الورشة صنع « ليوناردو » عدة مرايا «لجوليانو» بمساعدة عامل ألمانى ، كما صنع أشياء أخرى عدة •

كان « ليوناردو » يستخدم « القلاووظ » فى مصنوعاته ومخترعاته ولم يكن القلاووظ مستخدما اذ ذاك ، فقد كان معظم الناس يجدون مشقة فى صنعه ، ولكنه اخترع قاطعة يمكنها صنع القلاووظ دون الحاجة الى تنعيم أو مسح جديد • وقد ابتكرت هـذه الطريقة فى أمريكا بعد مائة وخمسين عاما من اختراع « ليوناردو » لها •

أظهرت الأيام فيما بعد أن « ليوناردو » كان محظوظا لصداقتـه « بجوليانو » ولولاه لوجد نفسه مهملا لا ينظر اليه أحد بعين الاعتبار • وكانت روما العاصمة الروحية للعالم المسيحى مكانا يؤمه الفنانون منـذ زمن طويل • وقد جرب معظم مشاهير الفنانين من أبناء جيله حظهم مع الفاتيكان من قبل • كان أحدهم ويدعى « برامانت » يعرفه « ليوناردو » بصفة خاصة فقد عملا معا فى أيام خالية زمن « لوديفيكو » فى ميلان •

كان « برامانت » مهندسا معماريا فى روما أيام « يوليوس الثانى » وقد بنى شهرته بتشييد الأبنية التى طلب البابا بناءها على عجل • وبرغم الشهرة كان « برامانت » مهملا فى عمله فهو غالبا ما يستخدم فى عمليات البناء مواد ليست من القوة بما فيه الكفاية لتصميم لا يتحمل تعرية الزمن ولا تصاريف الأيام •

كان « برامانت » يعرف « ليوناردو » جيدا ، ولكنه أصبح الآن غنيا مشغولا متكبرا ، بحيث لا يسترعى نظره قدوم هذا الفنان • كان يخص برعايته فنانا حديثا يدعى « روفائيل » وتحت رعايته حصل هـذا الفنان الجديد على أهم الأعمال التى تطلبها الفاتيكان • ومن ثم كون هذا الفنان الحديث لنفسه ثروة وهو لم يتعد سن الشباب • وفى عام ١٥١٠ عنـدما وصل « ليوناردو » الى روما كان « روفائيل » فى الثلاثين من عمره •

كان « ميكل انجلو » يعيش فى روما أيضا وكان قد فرغ توا من رسم السقف المشهور فى كنيسة « سستن شابل » وذهب « ليوناردو » لرؤية السقف ولكنه لم يجده بعد كل هذا رائعا عجيبا ، فكان يرى أن المبالغة فى ابراز العضلات غير ضرورية ، وانه لشىء حسن أن تعرف كل شىء عن التشريح ولكن ليس لزاما عليك أن تستعمله على النحو المبالغ فيه وقال : « أيها الفنان المشرح احذر أن تصبح رسام خشب عن طريق الاهتمام الزائد بالعضلات والعظام والأعصاب » وقد تبدو رسوم « ميكل انجلو » أحيانا وكأنها سلخت حية •

على الرغم مما يبدو من أن العداء كان لا يزال موجودا بين الرجلين العظيمين الا أنهما لم يصلا الى شجار مفتوح مرة ثانية • فقد كان كل منهما يعمل فى دائرة مختلفة عن الآخر •

كان « ليو العاشر » أحد البابوات غير العاديين ، كان سريع الخاطر وكان يطلب التمتع بالأشياء الغريبة من البلاد الأجنبية كالحيوانات والنباتات التى يقتنيها • وقد كلف « ليوناردو » بعمل لوحة له بعد الحاح أخيه عليه بأن يكلف صديقه الرسام بهذا العمل • ولكن أهل السوء فى بلاطه أخبروه بأن الفنان الجديد يقوم بتجارب على الورنيش (الذى تغطى به الصور بعد رسمها لحمايتها) قبل أن يبدأ فى الرسم ذاته ، تعجب الملك لهذا وامتعض وقال : « وا أسفاه ان هذا الرجل لن يتم شيئا أبدا لأنه يفكر فى النهاية قبل أن يبدأ » وانتهت بذلك حياة « ليوناردو » كرسام بابوى •

كان « ليو العاشر » يفضل « روفائيل » الشاب ويعتمد عليه فى كل الرسوم التى يريدها وكان الجميع فى روما يحذون حذو البابا ، وهكذا كان شأن الناس فى اهمالهم له • لم يكن « روفائيل » غير كريم معه أو معاديا على نحو ما كان « مايكل انجلو » فى فلورنسا •

هناك قصة طريفة عن هذين الفنانين « روفائيل » و « ميكل انجلو »

فقد عانت طبيعة « ميكل انجلو » الحساسة فى روما كما عانت فى فلورنسا من قبل ، لأنه لم يعامل على أساس أنه أعظم الفنانين جميعا • ولم يكن عداؤه موجها بالطبع الى « روفائيل » لأن « روفائيل » كان فى قمة النجاح ثريا يدلله النبلاء ، وكان يطيب له أن يرتدى الملابس الزاهية الفاخرة ويسير فى شوارع روما يستعرض نفسه ومن حوله تلاميذه •

وذات يوم رآه « ميكل انجلو » على هذا الحال واعتبرها اهانة شخصية له فتقدم اليه ووقف فى طريقه صائحا : « انك تمضى فى طريقك ومع حراسك كأنك جنرال » فما كان من « روفائيل » الا أن ابتسم قائلا : « وأنت تمضى بمفردك كأنك جلاد » وضج التلاميذ بالضحك •

لم يكف « ميكل انجلو » عن مهاجمة « روفائيل » قائلا ان كل ما يعرفه الفنان الشاب قد تعلمه منه ، ولم يرد « روفائيل » على هذا الهجوم ، فقد كان رجلا مهذبا غاية التهذيب ، وعندما يذكر «ميكل انجلو» كان يذكره فى أدب جم ويعترف بأنه قد تعلم منه الشىء الكثير •

كذلك كان « روفائيل » يتحدث باعجاب عن « ليوناردو » وكان أحيانا يعطيه بعض الأعمال ليؤديها له دون معظم فنانى ذلك العصر • كان « ليوناردو » ذا سمعة غريبة فقد كان المعتقد بشأنه أنه يستطيع أن يرسم كملاك ولكنه ينفق وقته فى دراسة فلسفة طائشة أو شىء آخر •

كان « ليوناردو » فيما سبق يحظى بتقدير الحاكم باستعراض قدرته فى صنع الحيل الميكانيكية • أما فى البلاط البابوى فهو يحتاج الى شىء لم يكن لديه : ألا وهو اجادته التامة للغة اللاتينية • حاول أن يحسن معلوماته فيها ولكنه لم يصلح كتلميذ يدرس اللاتينية ، ولعل مرد ذلك الى انشغاله بأشياء أخرى ، أو لأنه لم يكن ممن يجيدون اللغات • ويبدو غريبا أن يكون هناك شىء لا يستطيع « ليوناردو » اجادته •

والى جانب ما تقدم لم يكن « ليوناردو » يعرف الطريق الذى يدخل

البهجة والتسلية على قلب « ليو العاشر » • وكان البابا برغم شبابه بدينا مفرط السمنة ، وكان له من الأتباع الخصـــوصيين من يعرفون كيف يسلونه ، وكانوا جميعا يحبون النكات العلمية السخيفة ، وهو نوع من النكات يتمثل معظمه بالقسوة والسخف • كان البابا يحيط نفسه برجال شواذ كندماء له ، قزم صغير غريب ، وراهب بدين ضخم ، وآخرون من هذا النوع من الناس يتقاسمون روح الفكاهة فى البلاط البابوى ، وكان كل هؤلاء ينالون الهدايا والثروات ، وفى هـــذه الضجة لم يكن هناك مكان « لليوناردو » •

كان « ليوناردو » هو الآخر يعمد من حين لحين الى نكتة يسلى بها البابا الملول السمين • كان يصنع بالونات من الشمع على هيئة حيوانات مختلفة أو وجوه مضحكة ويطلقها فى حدائق الفاتيكان • وذات يوم وقع على حيوان غريب الشكل فأخذه وأنفق الساعات الطويلة فى تغطية جسمه بالقشور وزوده بذقن وقرون واحتفظ به فى صندوق كان يفتحه فجـأة عندما يزوره أحد ، فيندفع هذا الحيوان مثيرا فزع الزائر الغريب •

كان « ليوناردو » يحب التجوال فى الحدائق البابوية ، وكان يرسم هناك عددا من الرسوم الدقيقـة للنباتات والأزهار التى يراها حـوله • وقادته ملاحظة النبات الى اكتشاف القوانين الطبيعية التى لم يدر بها أحد قبله • لقد لاحظ أن أوراق النباتات المختلفة تنمو وفقا لقواعد منتظمـة معينة ، وأنها تحاول الحصول على أكبر قدر من ضـــوء الشمس حتى ما كان منها فى أسفل الجذع •• وقد اكتشف أنه يمكنك أن تعرف عمر الشجرة بعد الحلقات التى تجدها فى مقطع الجذع •

كان « ليوناردو » يمتع نفسه بجمال الزهور والأشجار • وعندما لم يكن يدرسها علميا كان يقوم بملاحظات عدة عن كيفية رسمها فهـو يقول : « تذكر أيها الفنان أن تنوع العمق واختلاف الظل فى أى نوع

من النباتات انما يتناسب مع كثافة الأغصـان أو قلتها •• وعنـدما تكون الشمس فى المشرق تظلم الأشجار في وسطها فى حين تضىء أطرافها » •

تبين أنه من الخير « لليوناردو » أن كانت له كل هذه الهوايات • فقد بدا أنه انسحب من كل مكان فى الحياة العامة • وكان مجىء «ايزابيلا وست » الى روما أبرز دليل على ذلك ، فلم تقم بمحاولة رؤيته ولم تطلب تلك اللوحة التى سألته اياها منذ سنوات ، وبدلا من ذلك جعلت «روفائيل» يرسم لها صورتها •

عين البابا أخاه « جوليانو دى مديتشى » حاكما على أربعة مدن هى « مونا » و « بارما » و « بياكنزا » و « رجيو » فأرسل « ليوناردو » الى « بارما » للتفتيش على الاستحكامات هناك • سافر « ليوناردو » فى هذه الرحلة عبر مستنقعات « بونتين » جنوبى روما • وكانت لهذه المستنقعات شهرتها فى نشر الحمى وجلب الأمراض • كان البابا ـ ولعل ذلك يرجع الى سمنته ـ قابلا للحميات ، وكان متضايقا من اعتلال صحته • وسر « جوليـانو » أن يوافق البابا على اقتراح « ليـوناردو » فى التخلص من المستنقعات بشق الجداول وسطها وتجفيف الأرض ، بدىء فى العمـل وانتهى بالنجاح بعد أن غادر كل من « جوليانو » و « ليوناردو » روما بوقت طويل •

كان « جوليانو » فى الثلاثين من عمره وبرغم ذلك فقد كان له جسم وعادات رجل مسن ، وكان البابا قلقا عليـــه • فقد كان تعلق الأخوين ببعضهما شديدا وأصبح يدور الحديث فى أوساط عائلة « مديتشى » عن زواج « جوليانو » •

يبدو أن الوقت قد حان لزواجه ، فقد وجد « ليو العاشر » فى أميرة فرنسية تدعى « فيليبرتا أف سافوى » زوجة مناسبة • وكان لويس الثانى عشر ملك فرنسا يوافق كل الموافقة على زواج الفتاة من « جوليانو » •

كانت العروس قصيرة القامة محنية الظهر وليست على جانب كبير من الجمال • ولم يكن « جوليانو » يفكر فى الزواج بجدية ، ولكن ما دام البابا يريد ذلك فقد أعلن موافقته •

رحل « جوليانو » الى فرنسا فى يناير عام ١٥١٥ وكان يبدو معتلا أكثر من المعتاد • ولم يكن « لليوناردو » أن يحس بالسعادة من هذه الرحلة فبعد وداع السفينة عاد الى مرسمه تفيض نفسه بالأسى والهم فانه وقد ترك « جوليانو » روما لم يعد « لليوناردو » فيها من صديق •

تناهت الى مسامع « ليوناردو » أنباء سيئة ، فقد مات فجأة « لويس الثانى عشر » وثار فى عقله ما كان قد اختزنه فى أعماق فكره من أن لويس الثانى عشر كان بالنسبة اليه ملجأ أخيرا يهرب اليه ان ضاقت به الحياة • وكان يطيب له الشعور بأنهم سيرحبون به فى البلاط الفرنسى اذا احتاج يوما أن يذهب الى هناك ، ولكن الطريق اليوم أصبح مسدودا فنراه يكتب بتعس وشقاء : ترك « جوليانو » المبجل روما فى التاسع من يناير عام ١٥١٥ عند مطلع العام ليتخذ له زوجا فى « سافوى » ، وفى نفس اليوم مات ملك فرنسا ، صدقت تكهناته المتشائمة فلم يكد يسافر جوليانو حتى وقع خلاف بينه وبين « جورج » الألمانى مساعده فى الورشة ، كان « جورج » وقحا سليطا ، وبدأ يقيم فى الخارج دون أن يسمح له « جوليانو » بذلك وغاب شهرين يسكر ويقول للناس انه يعمل «لجوليانو» ولا يستطيع « ليوناردو » أن يأمره بعمل شىء • وكان « لجورج » زميل ألمانى آخر يدعى « جوهان » يعمل معه فى صنع المرايا • وقد اختلف « جوهان » أيضا مع « ليوناردو » وسرق الألمانيان بعض مخترعاته وبعض المواد التى يستخدمها فى صنع المرايا •

صمد « ليوناردو » هادئا فى وجه الأزمات ومع أنه لم يفقد أعصابه عندما اضطر الى مغادرة ميلان بسبب الحرب ، الا أنه لم يستطع تحمل التكديرات الصغيرة التافهة . فقد أتلف هذا الخلاف الصغير مع العمال

أعصابه ، فكتب شكاوى مطولة ضد جورج وكان يتعجل عودة «جوليانو» الى ميلان لتأخذ العدالة مجراها ، ومما زاد الطين بلة أنه أصبح مريضا وصار يتولى رعايته طبيب •

تزوج «جوليانو » بسلام ولكنه سقط مريضا فى طريق عودته عندما وصل فلورنسا ، واضطر أن يلزم فراشه فى هذه المدينة • كان «ليوناردو» يقطع الوقت بالكتابة الى «جوليانو »ذاكرا أسباب شكواه ضد الألمانى المخادع الشرير • واستعاد « ليوناردو » صحته ببطء ، ولكنه بطء أسرع من شفاء « جوليانو » فى فلورنسا •

ملأ « ليوناردو » فراغ الانتظار بجذوة مفاجئة من النشاط فرتب رسائله العلمية مرة أخرى اعدادا لنشرها . وعلى عادته دائما ـ عندما كان ينظر فى مذكراته ـ وجد نفسه يبدأ سلسلة جديدة من الدراسات . وفى أول نقاهته كانت اسكتشاته غير دقيقة فان مرضه جعله ضعيفا وأتلف قدرته الا أنه مع الوقت تغلب على ضعفه واستعادت يده مهارتها •

هرب « جورج » من مواجهة الموسيقى التى تعزف لقدوم «جوليانو» وبقى زميله «جوهان» فى روما عازما على القيام بعمل قذر شرير ضد «ليوناردو» قبل أن يناله حكم العدالة • ذهب الى البابا يشكو « ليوناردو » وأنه خرج على قانون الكنيسة بتشريحه الأجسام البشرية • وكانت هناك ادانة عامة للتشريح منذ أيام البابا « بونيفاس الثامن » ولكن لم يكن هناك قانون يمنعه ، وكان « ليوناردو » واحداً من كثيرين يقومون بالدراسات العلمية بالتشريح ، ولنصف قرن مضى لم تكن هناك شكوى من أى شخص ، ولم يتدخل البابوات قبل « ليو العاشر » فى شأن هذه الدراسات • وكانت روح النهضة والرغبة العامة للتزود من منهل العلوم والمعرفة قد حفظت للناس الأمن والسلام فى أبحاثهم •

كان « ليو العاشر » رجلا كسولا شديد الحرص على مركزه • ولم يكن من المتوقع أن يدافع عن « ليوناردو » ضد هذا الهجوم الجاهل ،

خاصة أن أخاه لا يزال طريح الفراش فى فلورنسا لا يمكنه الدفاع عن صفيه •

أعد «ليوناردو» على وجه السرعة دراسة عن طريقة الكلام عند الانسان مزودة بعدد كبير من الرسوم تبين عضلات اللسان وتشريح الفم والحلقوم • وكان يأمل بهذه الطريقة ، أن يبين قيمة أبحاثه العلمية •

سلم « ليوناردو » كل هذا الى وصيف البابا بيده ، الا أن أحدا لم يهتم بما قدم ، وأهمل هذا العمل بما فيه من رسوم دقيقة وأصابه التلف والضياع • ظل « ليوناردو » متضايقا من هذه الاتهامات ، وكان محقا فى ضيقه فلم يكن بالشىء الهين أن يتهم المرء بخرق قوانين الكنيسة • ولكن مشكلة أكبر دفعت بكل هذا بعيدا عن عقل البابا وعن عقل « ليوناردو » كذلك •

لم يكن « ليو العاشر » رجل حرب فهو على عكس البابا «يولوس الثانى» الذى كان غير عادى بالنسبة للبابوات فى حبه للحرب ، ولقد نجح «ليو العاشر» لمدة من الزمن فى حفظ السلام ، ثم صار حفظ السلام أمرا يزداد صعوبة مع الزمن •

خلف « فرانسيس الأول » الملك الراحل « لويس الثانى عشر » على عرش فرنسا • وكان الملك الجديد عازما على غزو ميلان مرة ثانية• وكان الفرنسيون يطالبون أيضا بمدينتى «مباريا» و «بياكنزا» اللتين كانتا تحت امرة «جوليانو» وقد بعث البابا «ليو العاشر» «جوليانو» على رأس الفرق البابوية للدفاع عن المدينتين • ولم يكن «جوليانو» قد صح بدنه بعد هذا الجهد فسقط مريضا قبل وصوله الى ميدان القتال وأصبح واضحا أنه لن يعيش طويلا ••

سمع «ليو العاشر» باستيلاء الملك الفرنسى على ميلان وبأن الفرنسيين عادوا أصحاب الأمر فيها من جديد فأسرع يرتب أمر الصلح بأى ثمن وقطع الطريق الى ميلان لملاقاة الملك هناك ومصارحته بالأمر •

لا توجد اشارة تدل على ما كان يفعله « ليوناردو » خلال الشهور الأولى المزعجة من عام ١٥١٦ • لعله قد استدعى لمرافقة البابا فى رحلته بوصفه رجلا عاش فى ميلان وعلى دراية بأساليب الفرنسيين • أو لعله قابل الملك الفرنسى ، لا يستطيع أحد أن يعرف أو يجزم • ولكن المؤكد أنه كتب خلال فترة اضطراره للبطالة وصفا غريبا من خياله المتوقد عن كيفية رسم صور الفيضان •

ومما لا شك فيه أن دراساته الطويلة للماء هى التى أوحت له بهذا الوصف • وكثير من الاسكتشات التى ضمنها كتبه خلال تلك السنوات تمثل الأمواج والمياه الهادرة أو الأرض يبتلعها الفيضان • وقد سجل قائمة بالأشياء التى ينبغى تذكرها فى الصورة التى يصفها : الظلام ، الريح العاصفة فى البحر ، فيضان الماء ، الغابات تشتعل فيها النيران ، الأمطار ، البرق فى السماء ، الزلازل ، انهيار الجبال ، دمار المدن ، أشخاص فوق أشجار لا تقوى على حملهم ، الصخور والأبراج والتلال يغطيها الناس ، القوارب والمناضد الخشبية ، وكل ما يساعد المرء على الطفو ، التلال مغطاة بالرجال والنساء والحيوانات لمعان البرق من السحاب يضىء كل شىء ، وهكذا لصفحات عدة يصف ليوناردو هذه الأحداث الهائلة ومن حين لآخر يقطع الكتابة ليصورها بالرسم فى حيوية أكثر •

غير أن هذه الأفكار قد قطع حبلها بأزمة أقرب الى حقيقته فقد مات « جوليانو دى مديتشى » فى مارس عام ١٥١٦ •

كان « جوليانو » سنداً « لليوناردو » وأمله الوحيد فى روما وقد ذهب الآن • ظل الرسام المسن لفترة قصيرة يتلكأ فى المدينة ، ولكنه كان موقنا أنه لن يلقى من « ليو العاشر » ومن المعونة أقلها •

صمم « ليوناردو » أن يتخذ للمرة الثالثة خطوة لم تخفق البتة فى تضميد كبريائه المجروحة • سوف يذهب الى ميلان ويتبع نفسه بحاشية الملك الفرنسى الجديد الذى كان لا يزال هناك •

وداعا للبابا « ليو العاشر » البشوش المغفل البـــدين • وداعا لكل أعماله • استعرض « ليوناردو » القـــدر الذى جعل « عائلة مديتشى » تؤثر على حياته هذا التأثير القوى ، ففى صباه أهمله « لورنزو » لكنـه بعثه بقيثارة فضية يجرب حظه فى ميلان مع « لوديفيكو آل مورو » •• وها هو الآن وقد أضحى رجلا مسنا يذهب الى ميلان من جديد فنراه يكتب « ان آل مديتشى صنعونى وحطمونى » •

لم يكن لأحد ممن عـرفوه فى ذلك الوقت وروحه المعنـوية فى أحط درجاتها ، أن يخالجه الشك فى أن تكون لقصته نهاية سـعيدة • ولكنها كانت كذلك • ذهب « ليوناردو » الى ميلان وهناك أسبغ عليـه الملك « فـرانسيس الأول » ما هو أهـــل له من التقـــدير • فلما عاد « فرانسيس الأول » الى فرنسا كان بصحبته « ليوناردو دافينشى » رسام البلاط الملكى •

« فى بلاط فرنسيس الأول »

كان البلاط الفرنسى أشبه بعالم الأطفال ، وكانت حفلات النبلاء أقرب ما تكون الى حفلات الصبية • كان « فرانسيس الأول » مغرما بالمظاهر الفخمة والملابس البراقة وبكل ما يستطيع من الزهو والخيلاء• وكان أول اعتبار لوجود « ليوناردو » فى فرنسا فى حفل من هذا اللون فى أكتوبر عام ١٥١٧ •

ذهب الملك لزيارة أخته « مرجريت دى فالواز » فى قلعة « ارجنتون » وأقيم حفل فيه مباراة وتمثيلية ، فكان الحفل أقرب مايكون الى موكب بهيج وهنا برزت مواهب « ليوناردو » وأكدت أهميتها وفاعليتها •

حوت المسرحية فصلا يركع فيه ناسك بين يدى الملك ، ثم يلقى خطابا رقيقا فيه مدح وثناء ، قائلا ان الملك قد بعث الى الدنيا لينقذها من أسد ضار • فى هذه الأثناء يلج الباب أسد ضخم ويتجه الى الملك وبرغم معرفة الجميع بأنه أسد ميكانيكى الا أن زئيره وهياجه جعل بعض النساء الساذجات يصرخن ويولولن • وقد أدى الملك دوره فى المسرحية كما طلب اليه • أعطاه الناسك عصا سحرية ضرب بها الأسد فانشق صدره عن فتحة زرقاء اللون هى لون الأسلحة الفرنسية ـ وتدلت من الفتحة زهور بيضاء ـ هى زهور فرنسا ـ عند قدمى الملك •

أعاد « ليوناردو » هذا الحفل فى الليلة التالية فى « ارجنتون » وبعد العشاء ظهر فى هذه المرة ، فارس بلباس الحرب الذهبية فى صالة الطعام، يحمل قلبا كبيرا من الذهب ، وعندما وضع القلب أمام الملك •• انفتح ••

وخرج منه شكل رمزى غريب يقف على كرة أرضية ، نصفه يمثل فارسا شابا قويا والنصف الآخر لعجوز كهل حزين .

ماذا كانت تعنى هذه الرمزية ؟ .. هكذا أقبل الضيوف بعضهم على بعض يتساءلون ويتعجبون . ولا بد أن ليوناردو قد فسرها لهم كما فسرها فى مذكراته حيث يقول : « ان السرور توأم الألم ولا يوجد أحدهما دون الآخر ، وكأنما قد اتخذا معا بظهريهما فكل منهما عكس الآخر .. الطين والذهب .. فاذا اخترت اللذة فعليك أن تعرف أن وراءها يجىء الألم » .

قد يبدو لنا أن هذه الوسيلة كانت أسلوبا سمجا لتسلية الناس فى حفل ، ولكن رجال البلاط فى « ارجنتون » كانوا يتقبلون هذا اللون من التسلية قبولا حسنا . وقد كان الملك برغم انغماسه فى الملذات مغرما « بليوناردو » .

كانت انطباعاته عن معلومات الرسام ودراساته انطباعات عميقة طيبة ، فقد ظل طول حياته يصر على أن « ليوناردو » لم يكن أعلم رجل فى النحت والرسم والعمارة فحسب بل انه أيضا فيلسوف عظيم .

كان « فرنسيس الأول » يعامل الفنان العجوز بأدب ولطف وكرم . وأجرى له مبلغا طيبا من المال كما دفع نفقات « فرانسسكو ميلزى » و « سلاى » وكان قصر « امبواز » على نهر « اللوار » هو القصر المفضل عند « فرانسيس » اذ كان ينفق فيه معظم وقته ، ومن ثم فقد انتقل « ليوناردو » الى هناك . وكانت هذه آخر تنقلات الفنان العجوز . وما عاش « ليوناردو » فى جو أنسب وألطف من هذه الأيام . لقد منحه الملك « فيلا كلوس » سكنا خاصا له وكانت الفيلا قلعة صغيرة تحتضنها الأشجار ، وتطل على خضرة الريف من حولها فى منظر جذاب رائع .

كانت صحة « ليوناردو » فى تدهور مستمر . وعندما كان فى

الرابعة والستين عندما زاره في قصر «امبواز» رجل ايطالى ظنه فوق السبعين • كان هذا الايطالى يعمل سكرتيرا لأحد الكرادلة • وقد أعجب هذا الشاب الايطالى بالحديث الذى جرى بين « ليوناردو » وبين الكردينال عندما أطلعه على بعض كتاباته ورسومه التى كان يحفظها فى بعض خزائن مبعثرة حول القلعة •

أخبره « ليوناردو » أنه أتم فى حيـــاته تشريح ثلاثين جثة ، وأنه رسم جميع دراساته التشريحية • وكان السكرتير الشاب ينظر بفزع الى الكتب المربوطة بعيدا لم تنشر بعد والتى كتب عنها « ليوناردو » قائلا « اذا قدر لها أن تخرج للنور فستكون ذات قيمة وباعثة على السرور » •

أصيب « ليوناردو » بصدمة شلت يده اليمنى ، واعتقد الناس أنه بذلك انتهى كفنان • لم يكونوا على علم بأنه أحد القلائل الذين تعددت قدراتهم ، وأنه يستطيع استعمال يسراه كيمناه تماما • وهو وان كان لم يعد يرسم صورا كاملة بنفسه الا أنه لم يزل قادرا على تخطيط الرسم ورسم الأجزاء المهمة من الصورة • وبهذه الطريقة دون شك رسم آخر عمل خالد من لوحاته « يوحنا المعمدان » •

كان « فرانسيس الأول » مغرما بالتحدث الى « ليوناردو » وحتى وهو يقيم بقصر « أمبواز » كان يقصـد الى « لكوس » كل يوم ويظـل هناك يتحدث معه ولا يفرغ من حديث • كانت لديه مشروعات رائعـة وان كانت عادته أن ينسى كل شيء عندما يتابع فكرة جديدة ، الا أنه كان من بواعث السرور عند «ليوناردو» ظنه أن هذه المشروعات ستتحقق يوما ما •

كان « فرانسيس الأول » يريد أن يهدم قلعته ويبنى مكانها قلعـة جديدة • رسم « ليوناردو » هذا المشروع وكان يؤمل فى تنفيذه • وكان يرافق الملك خلال هـذا الوقت فى أســفاره وتنقـلاته فاخترع البيوت

المتنقلة • وقد أغرى « فرانسيس الأول » على التفكير في مشروع قناة تربط بعض المدن الفرنسية الكبرى • كان يحلم أيضا بتجفيف المستنقعات والحصول على تربة خصبة من أراضيها التى لا تمثل أية فائدة •

كانت آخر الاحتفالات التى اشترك ليوناردو فى اقامتها فى مايو عام ١٥١٨ • كان احتفالا مزدوج المناسبة • الأولى تعميد «الدرفين» ابن « فرانسيس الاول » والثانية زواج « لورانزو دى مديتشى » الصغيرة الى أميرة فرنسية •

ظلت مواكب الحفل أسبوعا كاملا وقد تزينت القلعة بالمناظر المرسومة ذات الحوائط والأبراج حتى بدت كأنها مدينة محصنة • وكان ضمن الألعاب اطلاق المدافع • كانت المدافع الخشبية تقذف قنابلها عبر المكان وكانت القنابل المقذوفة تنطلق فى مرح لأنها كانت فارغة لا ضرر منها • قاد الملك فى هذا الموكب جنوده فى صورة هجوم على المدينة وكان يحث فرسانه على اللحاق به فى شجاعة وبطولة ، ثم خرجت الحامية المحاصرة داخل قلعة المدينة وكانت معركة حامية شبه المعارك الحقيقية وقد قتل بالفعل بعض الناس فى الساحة بسبب الهرج والمرج •

أعقبت هذا الحفل مناسبة اجتماعية أخرى • وتذكر « ليوناردو » نجاح سمائه الزرقاء فى قلعة ميلان ، فبنى مثيلتها وزودها بكواكب تدور حول الأطراف ، على حين استقر الشمس والقمر فى أعلاها • لم يكن أحد ممن هناك قد رآها من قبل ، لذا أعجب الفرنسيون بهذه المعجزة •

كان شتاء ذلك العام قاسيا وقد افتقد « ليوناردو » فى فرنسا الشمس الايطالية الدافئة • كان يعلم دنو أجله قبل أن توافيه منيته بوقت طويل، وقد عادت اليه رغبته القديمة فى تسجيل كل ما يعرف وما يريد وألحت عليه الرغبة هذه المرة • وفى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٥١٩ كتب « ليوناردو » وصيته • كان دقيقا وكان تصرفه كتصرف رجال الأعمال

عندما يريد أن يكون مثلهم • وبالنسبة لوصيته كان هادئا وعمليا ،فقد ترك لأخوته فى فلورنسا برغم كل ما كان بينه وبينهم من خلافات ـ ماكان له من مال فى تلك المدينة نقداً أو عقارا •

وأوصى « لفرانسسكو ملزى » الذى ظل يلازمه وهو على فراشه مخلصا له حتى النهاية بكل كتبه ورسومه وأدواته وكذلك بما فى البيت من نقود وما كان يستحقه لدى الملك • وقد أعطى ملابسه « لملزى » وكانت الملابس ذات قيمة عدا معطف واحد مبطن بالفراء وقبعة تناسب المعطف أعطاهما لخادمته العجوز •

أوصى بنصف كرمته فى ميلان وبعض النقود التى يستحقها من « لويس الثانى عشر » الى خادمه هناك ، وأوصى بالنصف الآخر من الكرمة « لسلاى » الذى كان قد بنى بيتا وأصبح يعيش فى ميلان •

استدعى « ليوناردو » خمسة من القساوسة يشهدهم على الوصية ومع أنه لم يدع يوما ما أنه رجل دين الا أنه الآن كما يفعل الكثيرون كان يفكر فى معنى الموت ، وقد اتجه الى الله •

بأسلوبه العملى القديم وبعد أن أدلى باعترافاته ، خطط « ليوناردو » احتفالات جنازته • كانت تحتوى على غناء كنسى مرتفع وآخر منخفض وشمع سميك يزن عشرة أرطال ، وستة أشخاص فقراء يحمل كل منهم مشعلا يسيرون وراء جثمانه من « كلوس » الى « أمبواز » حيث يودع مقره الأخير ، ولن يستغرق السير بين المكانين طويلا ، وعلى ذلك فلن تنطفىء نار المشاعل مهما كان السير بطيئا• وقد أمر «ليوناردو» ألا تستخدم المشاعل بعد ذلك وانما توزع بين الكنائس الأربع فى القرية •

بالرغم من أن ليوناردو كان حريصا ودقيقا حتى بالنسبة لموضوع صغير كموضوع المشاعل فانه لم يذكر شيئا أو يصمم هو شيئا عن نصب تذكارى يوضع فوق قبره •

قبل أن يسلم روحه بلحظات غلبه الحزن عندما فكر في الأعمال التي تركها دون أن ينجزها وكل الرسوم التي كان ينبغي أن تكون أفضل مما كانت • انه لم ينشر شيئا ، أي شيء •• وعند التفكير في هذا سالت دموعه على وجنتيه ، ولم يستطع « ملزى » أن يخفف عنه وأن يواسيه •

وفي النهاية لفظ « ليوناردو دا فنشى » آخر أنفاسه وله من العمر سبعة وستون عاما •• مات مقتنعا أنه لم ينجز شيئا •



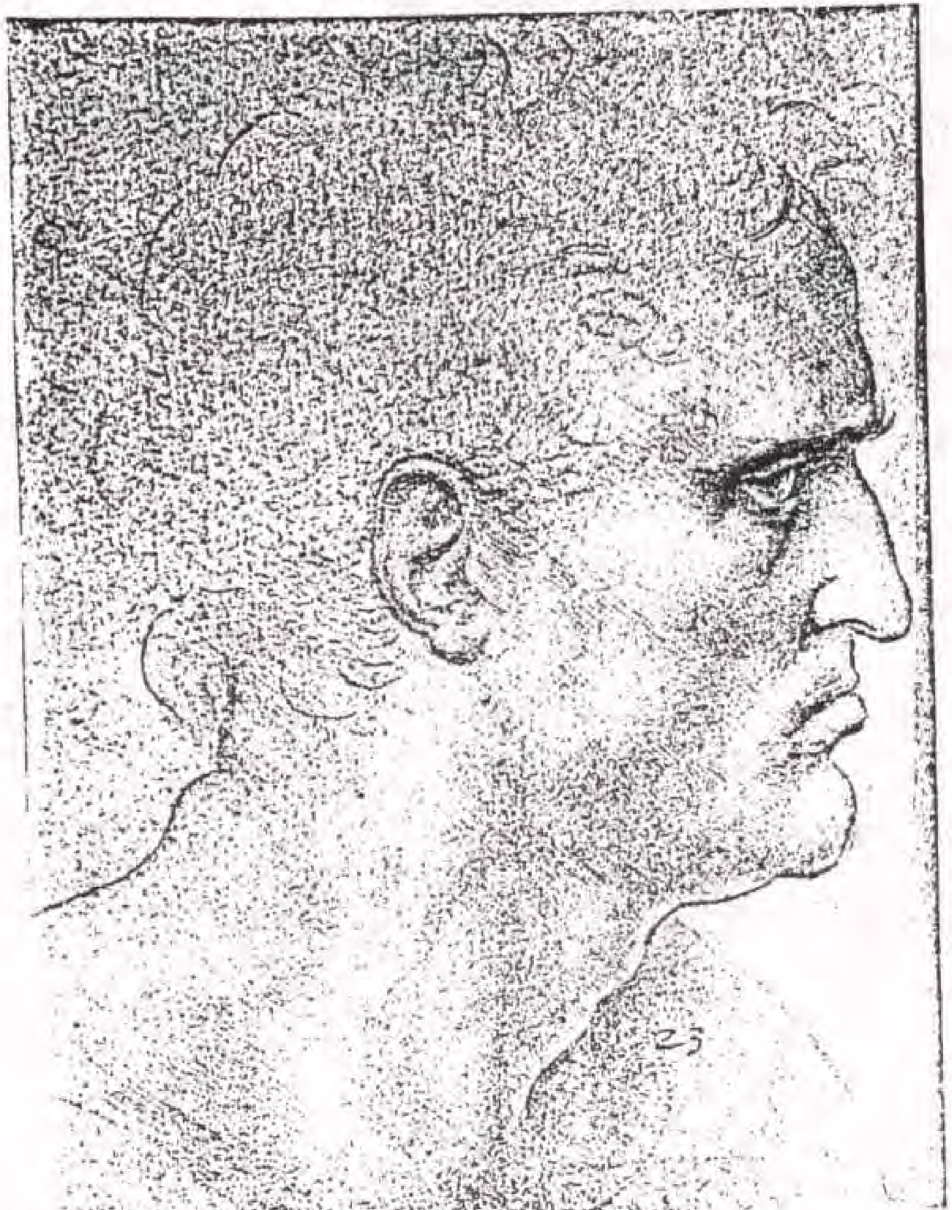
* 128. HORSEMAN, FOR THE ADORATION OF THE KINGS, CF. NO. 72.
PEN AND INK OVER SILVERPOINT ON BUFF PAPER, 1480–81.
LONDON, CAPTAIN COLVILLE



* 128A. HORSEMAN, FOR THE ADORATION OF THE KINGS, CF. N[illegible]
SILVERPOINT ON PREPARED PAPER, 1480–81.
PROVIDENCE, RHODE ISLAND, U.S.A., JOHN NICHOLAS BROWN



129. HORSES, LION'S HEAD, AND FACE OF A MAN. STUDIES FOR THE BATTLE OF ANGHIARI. PEN AND INK, C. 1504.
WINDSOR CASTLE, ROYAL LIBRARY. (19.6 x 30.8)



* 18. ST BARTHOLEMEW (STUDY FOR THE LAST SUPPER). RED CHALK ON RED PAPER, 1495-96
WINDSOR CASTLE, ROYAL LIBRARY



* 19. ST PHILIP (STUDY FOR THE LAST SUPPER). BLACK CHALK, 1495-96
WINDSOR CASTLE, ROYAL LIBRARY